

الحضارات الافريقية

تأليف: دنيس پولم
ترجمة: علي شاهين

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

الحضارات الأفريقية

تأليف : ديس پولم
ترجمة : علي شاهين

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

١٩٧٤

فهرست

صفحة	
٥	مدخل الكتاب
١٣	أفريقيا في زمن ما قبل التاريخ
١٧	أشهر السلالات الأفريقية
٢٧	القسم الأول - المسلمات التاريخية
٢٩	الفصل الأول - أفريقيا وعالم البحر الأبيض المتوسط
	الفصل الثاني - الاسلام في أفريقيا
٤١	أفريقيا الشرقية
٤٤	أفريقيا الشمالية
٤٨	السودان
	الفصل الثالث - ممالك افريقيا السوداء
٦١	ساحل غينيا
٦٤	أفريقيا الكونغولية والجنوبية
٦٩	القسم الثاني
٧١	الفصل الأول - المجتمعات
٧٤	١ - البوشيان

صفحة	
٧٧	٢ - الهوتانتوس
٨٠	٣ - الأقزام
٨٦	٤ - أفريقيا الشرقية
٩٤	٥ - أفريقيا الجنوبية
١٠٤	٦ - أفريقيا الاستوائية
١٠٦	٧ - أفريقيا الغربية
١٢٧	٨ - الصحراء
١٣١	٩ - السودان الشرقي
١٣٣	١٠ - أفريقيا الشمالية

الفصل الثاني

١٣٧	أفريقيا في علاقاتها مع العالم الخارجي
صفحة	
١٤٩	المراجع

مدخل الكتاب

من الأحكام القوية التي راجت ، هو أن الافريقيين لم يكن لديهم أي نصيب في التراث الحضاري بشكل عام . ولهذا ستكون افريقيا اذن دون تاريخ .

وبينما نجد انه ولا انسان يستطيع أن ينكر وجود حضارات قديمة في آسيا ترجع الى آلاف السنين ، فان المغامرين الاسبان les Conquistadores ، بعد ان قضوا على هنود أمريكا ، كانوا مذهولين أمام روعة المعابد والقصور التي خلفها « اولئك المتوحشون » . وكذلك فان ماضي القارة السوداء لم يلق أي اهتمام إلا منذ سنوات خلت وحتى دراسة الآثار الافريقية لم تكن لها وجود ايضاً .

والواقع فان الهمجية التي تلتصق بالافريقيين كانت تولد الاحتقار . كما ان الاربين استطاعوا الوصول في أواخر القرن التاسع عشر الى مناطق يسكنها جماعات تعيش منذ أجيال في حالة حرب وذعر دائمين .

وانه بانطلاقنا من هذا المشهد الكئيب للمجتمعات الافريقية ، فان علماء الجغرافيا قد ركزوا انتباههم على عزلة هذه القارة وعلى الطابع القاسي الذي يطبع سواحلها ، وعلى مظهرها كقارة تعيش في شبه انعزالية .

١ - سوف لا يرى القارئ بحثاً مفصلاً عن أفريقيا الشمالية في هذا الكتاب

المخصص للبحث في الحضارات الافريقية الصرفة . أي سود أفريقيا ذلك من الناحية التاريخية والسكان والانواع وطرق الحياة ، وإن ذكر المغرب هنا لا يمثل لنا الا ذكرى عن علاقاتنا مع بقية القارة الافريقية . كما أنه توجد كتب من سلسلة (ماذا اعرف ؟) قد عالجت بالتفصيل تاريخ الجزائر ومراكش وتونس بحيث يمكن للقارئ أن يرجع اليها .

فهي مفصلة عن امريكا بالمحيط الاطلنطي وعن آسيا بالمحيط الهندي ورغم امتدادها في البحار الجنوبية فانها لا تتصل بأوراسيا Eurasie الا بآبار صحراوي ضيق . وأما البحر الاحمر فهو لا يحاذي الا شطآنًا مقفرة .

ويبقى أخيراً ساحل البحر الابيض المتوسط فهو وحده الذي يفتح على علاقات تجارية ، ولكن ليس كل الساحل فهناك مثلاً شواطئ (السيرت Syrtis)^(١) التي لا تمثل شيئاً مما ذكرناه . وهكذا نجد بأن آباراً ضيقاً فقط من افريقيا هو الذي كان على اتصال بحضارات البحر الابيض المتوسط .

أما شواطئ القارة الاخرى فقد تميزت دائماً بوعورتها وصعوبة اجتيازها . فهي تارة قاسية وعرة وتارة مسطحة ومليئة بالبحيرات المستنقعية او مليئة بالحواجز الرملية والصخرية . كل هذا يجعل من شواطئ القارة غير صالحة لوجود ميناء طبيعي فيها .

كما اننا نجد حاجزاً منيعاً يجعل من الصعب جداً الوصول الى هذه الشواطئ المليئة بالمفاجآت والمصاعب . ونضيف الى كل هذا قصر هذه الشواطئ وعدم تجزئتها بشكل طبيعي وفقرها بالرؤوس والخلجان . كما ان بعض المناطق الافريقية تقع على بعد /١٨٠٠/ كلم من أقرب نقطة للبحر .

١ - هما خليجان على البحر الابيض المتوسط . السيرت الكبير في الشرق ، والسيرت الصغير في الغرب ويعرف اليوم بخليج غابيز Gabés .

وليست الشواطئ فقط هي التي تمنع اجتياز القارة بل هناك التضاريس ايضاً . وكثيراً ما قورنت هذه القارة بالمذود او الجرن الكبير ، فهي منخفضة في وسطها مرتفعة في سواحلها تماماً على عكس القارتين الآسيوية والاوروبية . أي ان المناطق المنخفضة تشكل وسط أفريقيا بينما تشكل المناطق المرتفعة محيطها .

فجبال الألب التي تنتصب في وسط اوروبا وكذلك هضبة التيب التي تحتل وسط آسيا تعطي الأنهار الرائعة التي تجري نحو الشواطئ العديدة ثم تسقي السهول الواسعة في طريقها الى البحر ؛ أما في افريقيا فتبدو الجبال الساحلية وكأنها تدفع مياه الأنهار من البحر ، وان مثل هذه الجبال تفرض بطبيعتها المنعطفات الطويلة في داخل القارة على الانهار كنهر النيجر او الكونغو ، بحيث يصعب وجود مجار قابلة للملاحة . ونرى الشبكة النهرية تصل في بعض الأحيان الى انخفاض داخلي وسط القارة وهذه هي حال (الشاري - لوغنو Chari - Logno ^(١) الذي يصب في بحيرة تشاد . وكذلك نرى الهضبة الافريقية على طول الشاطئ الغربي تتقهقر عندما تقترب من المحيط ثم تبرز من جديد قرب الشاطئ على شكل مرتفعات جبلية كثيراً ما تصور المكتشفون الذين وصلوا الى منطقة (سييرا Sierras) بأن هذه المرتفعات تشكل امتداداً لما يجب ان يكون . أما انهار افريقيا فهي بحكم تضاريسها المعقدة لا تكون كغيرها مرات قابلة للاجتياز ؛ فهي انهار قوية ولكنها غير كاملة وتسير في أماكن وعرة وتؤدي الى مناطق لا يمكن اجتيازها ؛ فهناك شلالات النيل وسرعة مجرى نهر الكونغو ومساقط نهر الزامبيز ، وغيرها من الأماكن التي تعيق طريق المسافرين .

الى هذه العوائق الطبيعية التي تفرضها التضاريس ، نضيف صعوبة المناخ

(١) الشاري ، هو نهر في افريقيا الاستوائية الفرنسية وكذلك اللوغنو فهو احد روافده .

وخاصة بالنسبة للرجل الاوروبي . فهو مناخ رتيب وغير محتمل . فهنا تبرز قساوة الصحراء ، وهناك تظهر الرطوبة الاستوائية فتشمل مناطق واسعة تذهل الانسان وتجعله خائر القوى .

وان مناخاً كهذا فاق حد التصور جعل الرأي يسود فترة من الزمن والقائل بأن وسط القارة الافريقية خال من السكان . ولقد كتب هيرودوت يقول : « من العسير أن يتكهن الانسان فيما وراء حدود بلاد (الترانسفوج) Transfuges لان المنطقة صحراوية جافة بسبب حرارتها الهائلة » .

وهكذا يمر زمن طويل وقلت القارة السوداء مغلق مجهول لا يعرف أحد شيئاً عنه الا ما تقوله حكايات سكان افريقيا الاصليين الذين كانوا يسكنون المقاطعات البعيدة فيتحدثون عن وجود العمالقة والأقزام وعن وجود الرجال - القروود والغيلان المفترسة وعن النساء التي تشبه الطيور . ولفترة طويلة كنا نستطيع ان نقرأ على خارطة افريقيا اسماء شعوب تسكنها ، فمنها من ليس لهم أنوف او ألسنة ومنهم من أصابعهم مقلوبة ومنهم الأقزام الذين يخافون على أظفعتهم من الرهاء .

نعم فافريقيا هي أم العجائب .

ولقد حكم على هذه القارة ان تعيش منطوية على نفسها لأسباب كثيرة . فهي منعزلة وذات اتصالات محدودة للغاية مع بقية القارات ، وكذلك وجود الحاجز الطبيعي الذي يحيط بها وأنهارها ذات المجاري الصعبة كل هذا الى جانب مناخها القاسي وحيواناتها المفترسة وحشرات التي هي أخطر من الوحوش .

وفي القرن الخامس عشر عُرفت الشواطئ الافريقية ، اذ اكتشفها البرتغاليون صدفة أثناء بحثهم عن طريق الهند وكذلك فقد وصل البرتغاليون الى رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٨ .

ولكن الحواجز الطبيعية القاسية جعلت أربعة قرون من الزمن تمر الى ان استطاع الانسان التوغل في قلب القارة السوداء . ولا ننس الأعمال الجليلة التي قام بها كل من : مانغو – بارك Mungo – Park ورونيه كاييه René Callié ومن اقتفى آثارهما . وان هذه الأعمال لأكبر دليل على الجهود العظيمة التي بذلت في سبيل هذه الغاية .

ويبدو من الصعوبات التي رافقت عمليات الاكتشاف ان المسافرين الاوربيين قد وصلوا كلهم الى هذه القارة عن طريق ساحلها الغربي الوعر او أنهم جاؤوا من جهة الصحراء وهذه عملية تكاد تكون مستحيلة بالنسبة لمسافر عادي أعزل .

وأخيراً فانتنا نضيف الى كل الصعوبات التي ذكرناها الأعمال العدوانية التي كان يقوم بها المسلمون في شمال أفريقيا الذين يصرون على منع « الكافرين » من دخول أراضي السودان .

وفي أوائل القرن التاسع عشر اكتشفت مجاري الأنهار الكبيرة مع منابعها فقط ، ولم يمض وقت طويل حتى اكتشف داخل القارة التي أصابها الاحتلال ثم التقسيم .

سواء قاعة ثقيلة تظلل سهولاً كثيرة العشب وأرض حمراء مجدبة الا من بعض الأعشاب وشجيرات الشوك تظللها أشجار (البوباب Baobab) الضخمة ، وهنا وهناك تقوم قرية فقيرة سقوفها من القش وبعض سكانها العراة او الذين يلبسون ثياباً مهلهلة ، ونساء ذات نحور مترهلة يطحنن الجبوب في أجران حجرية ، وبعض الدجاج والماعز التي تتضور جوعاً والى جانبها عدد من الكلاب الشرسة . هذه هي الصورة الحقيقية لأفريقيا من بلاد السنغال حتى الأبيسيني^(١) .

أما في الجنوب فهناك الغابة الرهيبة ذات الأشجار الضخمة والتي تلتف حولها

١ - مقاطعة في شرق افريقيا على حدود اثيوبيا .

النباتات فتشكل سقفاً منيعاً فوق المستنقعات التي تنتشر تحتها ، بحيث لا يستطيع النور اختراق الأوراق الكثيفة . كل هذا يخلق جواً خانقاً لا يطاق . ومثل هذا المنظر الذي وصفناه يمتد مسافة يحتاج المرء الى قطعها أياماً طويلة في هذا الجو الخانق حتى يصل أخيراً الى شاطئ أحد الأنهار الكبيرة حيث يبقى شاطئه الآخر غير مرئي وعلى شاطئ هذا النهر يشاهد الانسان أفراس البحر التي تطفو على سطح الماء كما يرى بعض الفيلة التي تؤم النهر لتشرب منه او يرى التماسيح النائمة على مساحات صغيرة من الرمل .

لقد كانت أفريقيا ، أرض الصحراء والغابات والحميات ، مسكونة بشعوب يصفونها بأنها غارقة في وحشية غريبة او هي وحوش بشرية ان صح التعبير . ولكن الاتصالات التي قام بها الملاحون الأوروبيون في القرون الوسطى تكشف لنا كما هو الواقع عن وجود ممالك منظمة في القارة الأفريقية ، بيد ان الملاحين الذين ارتادوا القارة بعد أربعة قرون لم يعثروا على تلك الممالك بل وجدوا أطلالاً يحجم عليها جو من الرعب . وهذا يؤكد بأن القارة السوداء كانت عرضة لحروب داخلية ومنعزلة عن العالم الخارجي فلا تنتشر ظلها الا على نفسها (*L'Afrique était à cette époque l'ombre d'elle-même*) .

فكيف نفسر يا ترى مثل هذا الانهيار .??.

الحقيقة أن حظ القارة الافريقية كان سيئاً للغاية ، فقد عرفت نور اكتشافها جماعة من التجار أغوتهم هذه القارة فكان همهم الوحيد استثمار ثرواتها الطبيعية . فالعرب والاوربيون كلاهما على السواء ، لم يأبهوا لحالة السكان المزرية بل اهتموا بالمكاسب التي يمكن الحصول عليها . أما نوع المكاسب فقد برز بسرعة وهذا أمر يؤسف له . فآسيا وأمريكا كانتا بحاجة الى الرقيق وها هي افريقيا — بلد الهمجية وشاطئ العبيد ومعها زنجبار^(١) — تقدم هذه السلعة .

١ — ومعناها بلد العبيد .

ولذلك نرى التجار العرب ومن بعدهم النخاسين الاوروبيين قد استطاعوا تدريجياً ان يهدموا تلك الممالك التي حدثنا عنها المكتشفون القدماء . والطريقة التي لجأوا اليها هي التلاعب على سكان القرى وشراؤهم الرقيق بالآلاف ودفع السكان الأصليين الى غزوات كان هدفها فقط احتلال عدد كبير من الأسرى .

وهكذا فان الذين جاؤوا الى افريقيا فيما بعد لم يجدوا في طريقهم سوى أناس مذعورين ومتهورين ، ولا يرون خلاصهم الا في الهرب فقط .

لقد كان الرجل الأسود البربري يعبد الأصنام *fétiches* ذات الأشكال المختلفة إلا ان هذه الفكرة الخاطئة قد استطاعت أن تبقى حتى اوائل القرن الحالي حيث اختفت كل الآثار الفنية القديمة ولم يبق الا تقاليد شعوب ترويهما الأساطير التي يجهلها الأوروبيون . ومنذ عدة سنوات قامت حركة تحمل طابع الكشف وحب الاستطلاع وغايتها اعطاء الأهمية الى تلك الأساطير التي تحكي تاريخ بمالك عظيمة .

كما نذكر هنا بعض الملاحم الكاملة التي استقيت من أفواه (الكريو griots)^(١) والشعراء القدامى الذين لا يزالون يحتفظون بالتقاليد التاريخية القديمة .

وان زمن ما قبل التاريخ *la Pré histoire* يكشف لنا في افريقيا عن وجود مناجم معدنية تشهد على وجود انسان قديم جداً في تلك المقاطعات . واخيراً وبعد زمن طويل ظهرت لنا فنون الآثار القديمة عند السود . وانه بفضل جهود الباحثين فسنعرف في يوم من الايام الى أي حد تكون فيه العزلة الجغرافية الموصوفة مطابقة للحقيقة التاريخية في القارة السوداء .

١ - هذه الكلمة تطلق قديماً على الساحر في افريقيا الغربية . والساحر هنا يمكن ان يكون ايضاً طبيباً او شاعراً او مؤرخاً وله مكانة مرموقة في المجتمع .

أفريقيا في زمن ما قبل التاريخ

تدل الأبحاث في زمن ما قبل التاريخ التي شملت كل القارة السوداء ، عن وجود نفس التتابع المنتظم من الأعمال الفنية المحددة في أوروبا من قبل الاختصاصيين .

وكذلك فإن التنقيبات التي حدثت خاصة على سطح الأرض قد كشفت هي أيضاً عن وجود مناجم معدنية كثيرة . ومنذ ربع قرن تقريباً بدأت الحفريات في باطن الأرض وفي عدة مناطق ، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنها كشف العناصر اللازمة لاستكمال الدراسات حول القارة السوداء . كما أن ماضي هذه القارة يختبئ وراء ثلاث حواجز طبيعية ، التي هي الرمل والأراضي السوداء والأراضي الحمراء . ولقد وجدت في أفريقيا كلها وحتى في الجنوب آثار تعود إلى العصر الحجري الأول . وكذلك فإن المنطقة التي تقع بين إطار الصحراء الجنوبي وحدود الكونغو تضم عدداً من الانكسارات الأرضية العميقة . ومنذ العصر الحجري الأوسط وجدت نفس الآثار الفنية التي وجدت في أوروبا الغربية ، ولكنها تختلف عنها بانعدام التتابع المنتظم فيها . أما آثار العصر الحجري الحديث فتظهر في كل مكان ما عدا أفريقيا الجنوبية حيث تكاد تختفي رؤوس الحراة وفن صقل الأدوات . كما أن الاختلاف الذي ذكرناه يعود إلى طبيعة المادة نفسها .

فاوروبا مثلاً قد استغلت حجر (السيكس) بصورة عامة ، ولكن فقدان هذا النوع من الحجارة في عدة مناطق افريقية قد اجبر السكان هناك على نحت حجر الصوان والحجر الرملي وحجر (الشيست)^(١) والشيست القاسي والدوليريت والفرانيت وحجر الاوبسيديان . كما ان درجة الصلابة في الحجر لها أثرها الكبير في عملية النحت . وهكذا فالتعقيد في الصناعات الافريقية الذي بدأ منذ العصر الحجري الاوسط يخرج بين صناعتين بارزتين في أوروبا : وهي صناعة (ستيلباي Stillbay) التي تتمثل في افريقيا الجنوبية والشرقية وتجمع هذه الصناعة الفنين : المستيريان والسوليتريان . Moustérienne . et Solutréenne

وهكذا فمنذ زمن ما قبل التاريخ نلاحظ وجود طابع معقد ومتعدد الاشكال يطبع الحضارات الافريقية كلها ، حيث نرى العناصر المتعارضة بينها نراها أمكنة اخرى واضحة المعالم .

لقد كانت افريقيا تلك القارة المتطرفة كالممر الذي لا نهاية له Cul - de - sac ولطالما وصل اليها رجال وفنيون ومؤسسات اجتماعية بيد انهم لم يستطيعوا الذهاب بعيداً بل بقوا فيها كالمحنطين غير قادرين على شيء . وأفريقيا هذه التي هي معهد للبشرية تقدم اليوم الى الباحثين مجالاً رحباً . واننا نقدر باهتمام الفائدة المرجوة على يد التحريات الباطنية التي بدأت منذ زمن ليس ببعيد . ونذكر ايضاً بأن طابع القارة القديم والذي حافظت عليه يظهر لنا في الرسوم والصور التي اكتشفت في الصحراء ، وكذلك في الرسوم الصخرية في افريقيا الجنوبية والتي كثيراً ما قورنت بالرسوم المكتشفة في جنوب غربي اوروبا وترجع الى زمن ما قبل التاريخ .

واذا كان بعض ما انتجه صيادو البوشيان يبدو حديثاً والبعض الآخر يبدو

١ - يمكن قطع هذه الحجارة الى صفائح .

قديماً فربما كان ذلك نتيجة تأثيرات على طبيعة الانتاج نفسه ، وهو ما نجعله حتى الآن . وإلى جانب الادوات المختلفة فقد قدمت افريقيا منذ عدة سنوات عدداً لا بأس به من الآثار الانسانية التي عثر عليها في مناطق متفرقة . وان دراسة هذه الآثار تجعلنا نتأكد بأنه فيما سبق العصر الحجري الحديث لم يكن يوجد في افريقيا هياكل عظمية لرجال سود البشرة . كما انه من المؤكد بأن افريقيا الجنوبية لم تعرف منذ الدور الارضي الرابع الانسان الوسط بين الشبانزي والانسان العادي .

كما ان (الافريكانتروب *Africanthropo*) الذي وُجد في افريقيا مجتمعاً مع الحيوانات اللبونة من عصر البليوستين الحديث ، انما يمثل مستودعاً للانسانية بيد انه اقصى وأقل تطوراً من (الأومو سابيان) الذي هو وسط بين انسان (النياندرتال) و (السينانترروب) .

ونجد أيضاً بأن انسان (رباط) وانسان (ديري داوا) *Dirè - Daoua* ، وانسان روديسيا يجمعون صفات متشابهة لكل المجموعة النياندرتالين *Néandertaliens* . كما ان انسان (بوسكوب *Boscop*)^(١) الذي وجد في (الترانسفال) هو أيضاً (أومو سابيان *Homo-Sapiens*) من العصر الحجري الراقى وقريب بنفس الوقت لانسان (كرو - ماغنون *Cro-magnon*) وبنفس الوقت من أجداد قبائل (البوشيان) الحاليين . وكذلك انسان (مشق العربي *Mechta-El-Arabi*) الذي هو أيضاً قريب لانسان (الكروماغنون) والذي جاء من أرومة مشتركة ربما كان أصلها شواطئ البحر الابيض المتوسط الغربية ؛ هذا الانسان هو على الاغلب جد قبائل (الغانش *Guanches*) الذين يقطنون جزر كناريا .

ويبقى اخيراً هيكل انسان العصر الحجري الحديث !! فقد وجد هذا

١ - مدينة في هولندا .

الهيكل قرب مركز (أسيلار Asselar) في منطقة من الصحراء غير مأهولة اليوم . كما وجد مع هذا الهيكل مجموعة من أصداف الحيوانات غير الفقريّة وآثار أسماك كبيرة وتماسيح وحيوانات لبونة ، وهذا الهيكل يمثل بعض التقارب لزنوج (غريمالدي gri maldi) ومن المعروف بأن هؤلاء قد تغيرت أشكالهم بتأثير عامل الزمن ولكن بعضاً من ملامحهم قد بقيت بين سكان البلقان .

أما زنوج غريمالدي فهم اليوم وقبل آلاف من السنين يشكلون الزنوج الحاليين . وإن تغير شكلهم عما كان عليه وهم في نفس المكان الذي يعيشون فيه اليوم يستبعد حدوث هجرات جاءتهم من شرق – جنوبي آسيا .

أشهر السلالات الأفريقية

مهما كان العصر الذي ظهر فيه السود في افريقيا ثم تكاثروا فيها فانه لا شك قد حدثت بينهم اتصالات مع رجال من اللون الابيض أصلهم من افريقيا الشرقية او من الشرق الأدنى والذين هم اجداد البرابرة في نفس الوقت . ويمكننا أن نطلق على اولئك الرجال اسم (الكاميتو – ساميين Kamito - Sémites) . نسبة الى حام Cham بن نوح ، وذلك للدلالة على أصلهم القريب من الساميين . والفرق بينهم يظهر من الناحية اللغوية أما من الناحية العرقية فهم في الأصل من سكان البحر الأبيض المتوسط . وفي أيامنا هذه فان المجموعة الغربية او الشمالية (للكاميتو – ساميين) فانها تضم عدا العرب الذين جاؤوا مع الغزوات التاريخية (مع العلم بأن اكثر عرب افريقيا الشمالية هم في الواقع برابرة أخذوا لغة المحتلين) ؛ نقول انها تضم عدا هؤلاء سكان ليبيا ايضاً وتونس والجزائر ومراكش (مع العلم ان سكان البلدين الأخيرين كلهم من البرابرة) ؛ وعدا عما ذكرناه فهي تضم ايضاً سكان صحراء موريتانيا والسودان وهم (المورس) (والتواريج) واخيراً سكان الصحراء الوسطى وهم قبائل (الستوبو) .

ونرى الحاميين الشرقيين اليوم والذين امتزجوا بالساميين والسود يؤلفون الشعب المصري بما فيه من مسلمين ومسيحيين وشعب البيدجا *Bedja* والنوبيين

والآبسينيين *Abyssins* والغالا *galla* والصوماليين والدانكيل *Danakil* . كما ان علماء اللغة يميزون في اللغات (الكاميتو - ساميين) ثلاث مجموعات فرعية :

١ - السامية ، ٢ - البربرية ، ٣ - الكوشيتيكية *Couhitique* (نسبة الى بلاد الكوش *Kush*) وهي كلمة كانت مستعملة في مصر القديمة للدلالة على كل البلاد الواقعة في الجهة العليا من الشلال الثاني . أما الحاميون الشرقيون فقد أثروا بطريقة مباشرة او غير مباشرة تأثيراً عميقاً على جيرانهم السود في افريقيا الشرقية والوسطى والجنوبية .

وكذلك فالبرابرة أنفسهم قد نقلوا بدورهم آثاراً كثيرة من مدنية البحر الأبيض المتوسط الى السود في السودان الغربي وغينيا . والواقع هو ان التاريخ الافريقي في جنوب الصحراء هو تاريخ اندماج تلك الصحراء عبر الأجيال في الحضارة (الحامية) . بيد ان التأثير السامي وهو حديث العهد ، نرى آثاره محدودة في افريقيا الشمالية .

ففي الأصل كانت الاحتكاكات سهلة بواسطة التجاور بين الشعوب . كما ان علم الجيولوجيا والجغرافيا يؤكدان وجود مجار مائية هامة في مناطق الصحراء والسودان الحالية والتي كانت تنبع من سلسلة جبال الأطلس ومن هضبة (الأحجار *Hoggâr ou Ahaggâr*) في الدور الأرضي الرابع .

كما ان وديان تلك المجاري المائية لا تزال ظاهرة بوضوح رغم ما اصابها من ردم . ومن الخطأ ان نتصور بأن هذه المناطق التي جفت اليوم كانت تستطيع ان تسبب اباداة مجموعة كبيرة من السكان يشهد على وجودها آثار صناعة مزدوجة . فاكتشاف الفؤوس المنحوتة وأحجار الطواحين المستديرة والاجران يثبت وجود المزارعين في الجنوب والذين هم اسلاف السود الحاليين . وكذلك في الشمال فان اكتشاف الأدوات والأسلحة التي تضم انواعاً من السكاكين ورؤوس الحراب والنصال مما يتجاوب مع حاجات الصيادين والمحاربين والرعاة الرحل . واننا

نظن بأن أصحاب هذه الصناعة كانوا اسلاف البرابرة الحاليين . كما ان الحدود التي تفصل بين مدنية الشمال ومدنية الجنوب هي صعبة التوضيح .

ويرى (جسيل Gsell)^(١) بأنه حتى نهاية الامبراطورية الرومانية كانت تعيش جماعات صغيرة موزعة على طول الصحراء ومفصولة عن (البيض) بنهر (عويد جدي Oued dgedi) الذي ينبع من (الاغواط Laghouat) ويغيب في البحيرات المالحة الكبيرة جنوب (بيسكارا Biskara) . وفي أيامنا هذه نرى بأنه حتى طرف الصحراء الجنوبي بأن العنصر الأساسي للسكان هو من الاصل الأبيض . وكثيراً ما يطلقون على هذه المنطقة (افريقيا البيضاء) وذلك للمقابلة مع المنطقة الافريقية التي تشمل جنوب الصحراء والتي تسمى (أفريقيا السوداء) . أما الحدود بينهما فهي تسير على خط ينطلق من السنغال ويمر بمصب نهر النيجر والتشاد ثم يدور حول الهضبة الاثيوبية من جهة الغرب حتى يصل الى المحيط الهندي .

ان (الميلانو - أفريقيين) الذين يقطن معظمهم أفريقيا السوداء يتميزون بميزة طبيعية ظاهرة ألا وهي لون جلودهم الذي يتغير من الأسمر الفاتح كما هو في بعض سكان أفريقيا الجنوبية الى اللون الأسود الغامق عند قبائل (الأولوف ouolof)^(٢) في السنغال . وتأتي مقاومة السود للحرارة من وفرة الغدد العرقية التي تفرز كمية من العرق تعادل ضعف ما يفرزه الاوربيون ، كما تأتي المقاومة أيضاً من لون جلودهم . وصفة أخرى بارزة عند السود ألا وهي التنظيم الشعري (نسبة للشعر الذي يغطي الجسم) ؛ فأجسادهم تقريبا جرداء وشعر رأسهم أجبعد وأما وجود اللحية فنادر عندهم . كما ان اكتافهم عريضة وأوراكنهم ضيقة بحيث يأخذ نصف حسدهم الأعلى شكل جذع مخروط . وكذلك فلا وجود

(١) مؤرخ فرنسي ١٨٦١ - ١٩٣٢

٢ - ويطلق عليهم أيضاً اسم (الأولوف Jolofs) وهم سلالة سوداء من السنغال في افريقيا الغربية الفرنسية .

لانتفاخ عضلة الساق . كما يملك السود أيضاً خصائص تشريحية وفيزيولوجية تختص بهم وحدهم فقط . أما لغات سود أفريقيا فتشمل لغات السودانين ولغات (النيليين *Nilotiques*)^(١) ولغات (نصف – البانتو *Semi-Bantou*) في الجهة الغربية من الغابة الافريقية ، ولغات البانتو) والتي يتكلمها سكان المنطقة التي تمتد من خط الاستواء حتى بلاد الكاب .

وفوق تلك الأرض الواسعة التي يعيشون عليها والتي تخصهم وحدهم ، نرى (الميلائو – افريقيين) ينقسمون الى عدد من السلالات الفرعية التي تحمل اسماء جغرافية . وهي السودانية والغينية والكونغولية والنيلية وأفريقيا الجنوبية .

وان مجال كل سلالة فرعية من التي ذكرناها ينحصر الى حد ما في بقعة حضارية خاصة ، تعين حدودها العوامل الجغرافية او المناخية . ونذكر هنا بأنه اذا ما كانت المميزات التاريخية والسلالية واللغوية تطابق ما ذكرناه فان هذه المجموعات لا تبقى مستقلة تمام الاستقلال عن بعضها . فالحدود التي يؤكد وجودها عالم التاريخ البشري لا تطابق أبداً الحدود التي يقول عنها عالم اللغة ، كما أنه لا هذه ولا تلك تطابق أبداً التقسيمات السلالية لهذه المجموعات . وباختصار فان تلك المجموعات منفصلة ولكنها متازجة الى حد ما .

وان أهم سلالة فرعية هي السودانية أو (سود المروج الخصبة *Noire de la brousse*) . وهي تحتل منطقة السهول الواسعة التي تقع جنوب الصحراء والسنغال حتى مقاطعة الكوردوفان . ولقد قامت عدة بمالك قوية في هذه المنطقة الشاسعة التي تسهل الاتصالات والمعاملات مع غيرها . وزنوج السودان ذوو قامة طويلة وجسم ممشوق ، وجلد شديد السواد مع وجود بروز في الكفين . أما النموذج الصحيح للسودانيين فهم شعب (الأولوف) الذين يقطنون ضواحي (داكار) . كما نجد في الجهة الشرقية قبائل (المالينكي *Malinké*) (والهاوستا

١ – نسبة الى النيل أي الذين يقطنون حوالي مجرى نهر النيل .

Haoussa) وقبائل (السارا *Sara*) على شواطئ نهر الشاري ، ويتميزون بقامتهم الطويلة (١٨٠) سنتم وسطياً وبرؤوسهم المدورة .

أما السلالة الفرعية الغينية *Guineenne* فقامتهم تميل الى القصر ولكنهم اكثر ضخامة ، وتقطن هذه السلالة خط الغابات الذي يحاذي خليج غينيا حتى الكامبيرون . ومما يذكر أن ذبابة تسي - تسي تمنع تربية المواشي عندهم ؛ أما أمطارهم فغزيرة جداً وتشجع على زراعة الحبوب وبعض النباتات الدرنية والايكنام *Igname* و المانيوك *manioc* . ورغم كون الغينيين أكثر فان بمالكهم أقل شأنًا وعظمة من الممالك السودانية القديمة .

أما السلالة الفرعية الكونغولية فتنشر على طول الغابة الاستوائية التي تمتد الى الجنوب حتى شاطئ احد روافد الكونغو . وبنية اجسام هؤلاء ضعيفة بصورة عامة وكذلك فان بروز الفكين عندهم واضح اكثر مما هو عند غيرهم ، واطرافهم قصيرة الا انها مفتولة العضلات . أما وضعهم الاجتماعي فنقسم على نفسه الى أقصى حدود الانقسام ، غير ان المصادر النباتية مستثمرة للغاية .

ويأتي الآن دور السلالة النيلوتية او النيلية ويتميز رجالها بطول قامتهم التي تصل الى ١٧٨ - ١٨٢ سنتم ، وأجسامهم ممشوقة ووجوههم مستقيمة وذوو ملامح أوروبية اكثر منها افريقية سوداء . وتتألف هذه السلالة من جماعة أصيلة صافية من رعاة (الدنكا *Dinka* والنوير *Nuer* والشيلوك *Shilluk*) . وتسكن هذه السلالة منطقة المستنقعات والمروج التي تمتد من الخرطوم في الشمال حتى بحيرة فيكتوريا في الجنوب .

وأخيراً تأتي السلالة الفرعية لأفريقيا الجنوبية ، وتضم هذه السود الذين يعيشون في جنوب الكونغو البلجيكي والاطلنطي حتى المحيط الهندي . ويميل لون جلود هذه السلالة الى قلة السواد وكذلك البنية العامة فهي تزيد على الوسط وبرزوز الفكين معتدل الملامح العامة رقيقة بعض الشيء . وبما انهم كانوا

دائماً ضحايا لغزات وحروب كثيرة فهم يعيشون اليوم حياة الرعاة وغالباً ما يشكلون اليد العاملة في الورش الصناعية والمنجمية في أفريقيا الجنوبية . وان قسماً من هذه السلالة يشكل جزءاً من سكان مدغشقر السود وينضم الى سلالتهم (الميلانيزيون *les Mélanésiens* ^(١)) وتوجد هناك عناصر من العرق الاصفر استوطنت معهم والتي جاءت من ارجيل ماليزيا اثناء غزوتين كبيرتين الاولى في القرن الثالث والثانية في القرن الرابع وهذه الاخيرة هي التي اسست مملكة هوبا *Hova* فوق الهضاب العالية .

اما المنطقة التي تقع في أقصى الشرق من افريقيا وهي هضبة الآبيسين وشبه جزيرة صوماليا ، هذه المنطقة مأهولة بالسلالة الاثيوبية ذات الجلود القريبة من اللون الاسود الغامق ، اما أجسامهم ففارعة وشعرهم مجعد ووجوههم مستقيمة وهذا ناتج من اختلاط السود بالغزاة البيض الذين اتوا على الغالب من الجزيرة العربية او ان ذلك ناتج عن وجود مجموعة قديمة من السكان تجمع صفات البيض والسود معاً ، وهكذا نرى ان النموذج العام للاثيوبيين يختلف تماماً عن النموذج (المولدين) ^(٢) . كما ان الذين يمثلون النموذج الاثيوبي يسكنون اليوم (هضبة الآبيسين) وهم قبائل (الغالا *Galla* والآبيسينيين *Abyssins*) او بمعنى اكثر دقة (الأمهارة *Amhara* والتيجريان *Tigréens*) .

وفي شمال الآبيسيني نرى السلالة الاثيوبية تشغل وادي النيل مع مجموعات اخرى يطلق عليهم اسم (النوبيين *Nubiens*) حتى اعالي منطقة الشلال الثاني حيث تنقطع فجأة سلالات الزنوج *Négroïdes* ، وهذه الحدود كما يؤكد تاريخ البشرية لم تتغير منذ اربعة آلاف سنة .

وفي الجهة الجنوبية حصلت اختلاطات بين الاثيوبيين والنيليين كونت فيما

١ - نسبة الى ميلانيزيا ، وهي احدى الاقسام الكبيرة التي تؤلف قارة اوقيانوسيا .

٢ - المقصود بهذه الكلمة هو الرجل الذي يولد من والد ابيض وأم سوداء او العكس .

بعد ما نطلق عليهم احياناً (النصف حاميين) وهم الماساي والناندي والسوك
Suk . وهم رجال ذوو قامات رفيعة وجلد فاتح اللون ومجمعد . واخيراً ففي
كل انحاء السودان الغربي من حدود السنغال حتى بحيرة (تشاد) تعيش جماعات
الى جانب المزارعين السود هم (البول peul)^(١) ، الذين يتحلون بصفات اقرب
للاوروبيين منها للزنوج السود . فلون جلودهم فاتح وشعرهم موج وأنف (قنّ
Aquilin) .

والاعتقاد السائد اليوم هو ان جماعة (السيول) جاؤوا من الشرق ويمثلون
مزيجاً من الأثيوبيين والعرب والزنوج . اما لغتهم فيمكن تصنيفها الى جانب
لغة جماعة (السيرير Sérères) (والأولوف) أي في المجموعة السنغالية .

وفي القديم أشار اليونانيون الى وجود سكان في افريقيا ذوي قامة قصيرة
جداً اطلقوا عليهم اسم الأقزام Pygmées . وذكر بأنهم يقطنون مصر
العليا . اما هوميروس فقد تحدث في الياذته عن معارك طاحنة تحمل وطأتها
الأقزام ضد (الرهاء les grues) . الا ان مثل هذه الحكايات كانت يُنظر
اليها حتى القرن الاخير نظرة الاساطير فقط . الى ان جاء (شوينفورت
Schweinfurth)^(٢) فأكد وجود رجال ذوي بنية ضعيفة جداً في افريقيا
الوسطى كما أكد ذلك (شيلو)^(٢) وجودهم في (الغابون Gabon)^(٣) عام
١٨٦٣ .

ونحن نعلم اليوم بأن الغابة الاستوائية الواسعة تضم جماعات بشرية خاصة
بحيث ان قامة رجالها القصيرة وملامح اخرى قصيرة تميزها عن الزنوج السود

-
- ١ - جماعة من سلالة بربرية ممتزجة بالدم العربي والاسود .
 - ٢ - رحالة وعالم طبيعي الماني ١٨٣٦ - ١٩٢٥ .
 - ٣ - شيلو Chaillu ، مسافر امريكي وصل الى منطقة الغابون ١٨٣٧ - ١٩٠٣ .
 - ٤ - احدى المستعمرات الأربع الفرنسية التي تعد من اقدم المستعمرات في افريقيا
الاستوائية .

الذين نعرفهم . هؤلاء أنفسهم هم اقزام افريقيا الوسطى . ولقد اصبحت صفاتهم معروفة اليوم وأبرز شيء فيهم هو القامة التي تنقص عن /١٥٠/ سنتم ، وكذلك لون جلودهم فهو اسمر محمر ، ورغم ان شعر رأسهم قصير وأجعد الا ان اللحية نامية عندهم كثيراً ، ونرى بقية اجسامهم مغطاة بالشعر بينما نجد أجسام السود الآخرين خالية من الشعر . وكذلك رؤوسهم مدورة وأنوفهم عريضة جداً وان الشفة العليا عندهم ترسم فوق خطها الوسطي انحناءة محدبة نموذجية ، واما تناسب اجسامهم فخاص بهم . فالرأس ضخيم والسيقان قصيرة بحيث تجعل اليدين تبدوان أطول مما هما عليه . والفوارق التي تفصل الاقزام عن السود الآخرين من ناحية المظهر تمتد الى الفوارق الفيزيولوجية . اذ ان الغدد الشحمية عند الاقزام ذات افرازات لها رائحة خاصة كما ان النبض عندهم بطيء . وكذلك فالتركيب الدموي يختلف ايضاً . ولكل الاقزام مسكن واحد هو الغابة الاستوائية التي تمتد من المحيط الاطلنطي الى البحيرات الكبرى بين نقطة خمس درجات عرضاً من الشمال الى الجنوب . وينقسمون الى جماعات صغيرة مبعثرة ، وكلهم يعيشون على الصيد والقطاف ويجهلون الزراعة وتربية الماشية وعمل النسيج والخزف (الفخاريات) . كما لا يُعرف شيء عن أصلهم . ولكن يبدو انهم استطاعوا توسيع نفوذهم في الماضي لأن بعض العادات عند بقية السود في مناطق معينة تشير اليهم رغم عدم وجود احد منهم اليوم وهذا ما يدلنا على انهم وصلوا الى هذه المقاطعات في الماضي .

واخيراً ، وفي الطرف الجنوبي الغربي من القارة السوداء تعيش حالياً زمرتان من الجنس البشري في طريقهما الى الانقراض وهما : (البوشيان أو البوشمان *Bochimán ou Buscman*) او رجال المراعي ، والزمرة الثانية وهي قبائل (الهوتانتوس) ويمكن اعتبار البوشيان والهوتانتوس سلالة واحدة . وهي سلالة (الكوازان *Khoisan*) ^(١) . اما البوشيان فرجال قصار القامة

١ - ومي عبارة عن مقطعين *khoi* وهو ما يشير به الهوتانتوس الى انفسهم . والمقطع الثاني *san* الذي يطلقونه على البوشيان .

/١٥٢/ سنتم وسطياً ولون جلودهم اصفر خاص يذكرنا باللون النحاسي لسكان منغوليا في قارة آسيا ، اما شعرهم فمجعد كثيراً ولا يوجد شعر على اجسامهم . وبينما نرى (الهوتانتوس) يعطون ملامح فيزيائية قريبة لهم الا ان بنيتهم اطول /١٦٠/ سنتم وسطياً، وكذلك لون جلودهم غامق . ويتميز الهوتانتوس والبوشيان على الغالب بتقعر الخواصر والذي يظهر بوضوح اكثر عند النساء . ولقد تقلصت هاتان المجموعتان الى عدد قليل من القبائل المنتشرة في صحراء كالاري ، ويعيش البوشيان حياة زرية فيمتهنون الصيد وقطاف الحُضار ويتكلمون لغة ذات (طقطقة clicks) . اما الهوتانتوس فذوو حضارة ارفع وهم يشتغلون في الرعي ويبعدو انهم جاءوا من الشمال فدفعوا امامهم البوشيان الى المناطق الصحراوية . وان القبائل الصافية التي بقيت منهم فاننا نراها اليوم في المروج الجنوبية التي تقع في جنوبي غربي افريقيا .

السلالات الحالية في القارة الافريقية .

منطقة معتدلة	مصر افريقيا الوسطى جزر كناريا (قبائل الفانش)	أفريقيا البيضاء
منطقة صحراوية	المورس التواريج التوبو	
الميلانو - أفريقيين	السودانيون الغينيون الكونغوليون النيليون سكان جنوب افريقيا	افريقيا السوداء
الاثيوبيون	الكالا والآيسان النصف-حاميون (وهم اثيوبيون مختلطون بالميلانو - افريقيين) . البول (وهم اثيوبيون مختلطون بالعرب والميلانو - افريقيين)	
الاقزام	←	
الكوازان	البوشيان الهواتتوس .	

لغات افريقيا الحالية

الساميون	افريقيا الشمالية من مصر حتى المغرب . اثيوبيا واريتريا .	لغات الحامو - ساميين
البرابرة	افريقيا الشمالية الصحراء	
الكوشيتيك	مصر العليا (بدجا) اريتريا اثيوبيا كينيا (الصوماليون)	
لغات زنوج افريقيا	السودانية النيلية النصف - بانتو (الغابة الغينية) البانتو . من الخط الاستوائي الى الكاب	لغات الكوازان

القسم الأول

المسلمات التاريخية

الفصل الأول

افريقيا وعالم البحر الأبيض المتوسط

تعتبر الحضارة المصرية التي ظهرت منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد ثمرة للبيئة الطبيعية الافريقية . ولقد ازدادت هذه الحضارة غنى بما جاءها من القارة الآسيوية . ولكن قبل ان يظهر النفوذ الآسيوي فان السكان الأصليين أجداد الفلاحين الحاليين في مصر قد استطاعوا ان يقدموا البرهان على ما أعطوه للانسانية . كما ان مصر ، ذات الأبعاد الشاذة والمحددة بوضوح ، نراها تتسع أحيانا وأحيانا تلتشم وبنفس الوقت تجاور بحرين وتتصل بالقارة الآسيوية الكثيفة السكان ؛ ان مصر هذه لا تدين بمعالم تاريخها وحضارتها البارزة الى طبيعتها التي هي طبيعة الواحات .

فمن المؤكد بأن الصناعة قد ازدهرت فيها وكذلك التجارة ولكنها تجارة قوافل فقط . كما ان الشعب المصري هو بطبيعته استقرارى لا يحب الانتقال وكل ما ينعكس فيه هو ملازمته للأرض .

وكذلك فان تنظيمه الاجتماعى يعطي المرأة دوراً كبيراً بيد ان المصري لا

يقبل تعدد الزوجات . كما نرى حكامها او رؤساء المقاطعات (وملوكتها المقدسين) يارسون سلطاتهم كأوصياء على البلاد ويظهرون أنفسهم المسئولين عن ازدهارها. أما الديانة فانها تحتفظ بالطقوس القديمة المحلية . وعندما اتجهت مصر الى ديانة الاله الواحد بقيت هذه الديانة محصورة بين الفلاحين فقط لأنها ديانة تهتم بحياة الانسان اليومية كما تعطيه الأمل في الحياة الأخرى .

لا يوجد شعب أقل ميلاً للحروب مثل الشعب المصري ، ففي أربعين قرناً من الزمن لم نر الا تبدلات بسيطة في المراكز السياسية ، وهذه التبدلات كانت نتيجة أحداث خارجية . ومن خلال تلك التبدلات نستطيع ان نميز العصور الآتية : العصر (التينيت *Thinite*) ، والعصور القديمة والعصور الوسطى وعصر الامبراطوريات الجديدة .

وكما قلنا عن تعلق المصري بالارض فهو يعطي كل انتباهه الى محصولاته . أما المناخ فهو العدو الدائم له . كما ان توزيع المياه وبناء الحواجز لها وحفر الأقنية يدفعه لأن يكون على وفاق مع جيرانه ويخلق بالتالي التزامات متبادلة بينهم ، هذه الالتزامات هي عامل من عوامل توحيد البلاد وهي التي أدت فيما بعد للانتقال من نظام المقاطعات القديمة الى اوتوقراطية الفراعنة .

كما ان ضرورة الدفاع ضد أي هجوم ، وهذا محتمل دائماً ، فان مقاطعات أعالي النيل أو كما تسمى (قصر مياه مصر) قد جرّت الامراء الى انشاء علاقات مع السودان للمحافظة على مناطق نفوذهم . وهكذا فقد نشأت علاقات تجارية جمعت بين مصر والسودان النيلي وكانت هذه العلاقات تعتمد على تجارة الرقيق والعاج والذهب وجلود النمرور والصمغ والحيوانات الغريبة . ومنذ ذلك العصر فقد استطاعت هذه القوافل التجارية ان تخلق اتصالات منظمة بين الكوردوفان ودارفور والمناطق المجاورة لبحيرة تشاد .

واننا نذكر بأن الآشوريين والفرس لم يتركوا في مصر أثناء مرورهم فيها الا

الخرائب . ولقد كان قبيز Cambyse قاسياً أثناء حكمه ، أما الاسكندر فالعكس تماماً ، فلقد كان سيد آسيا الصغرى وعندما دخل الى مصر استقبل كمحرر لها وليس كفاتح . فقد حمل معه الغنى والسلام ، وكان يشارك في تقديم الضحايا للآلهة ويحترم النظام القائم في البلاد . وكذلك فان البطالة الذين جاؤوا بعده حملوا لقب الفراعنة وأصلحوا المعابد رغم أنهم يونان ، مع العلم أنهم اتخذوا مدينة الاسكندرية المستعمرة اليونانية كعاصمة لهم ؛ واستطاعوا ان يقربوا الشعب المصري المتدين والمتمسك بتقاليده الى العائلة المالكة التي هي عائلة (اللاجيد les Lagides)^(١) والتي دام حكمها زهاء ثلاثة قرون .

ونذكر هنا أنه خلال الفترة الطويلة التي تم فيها اشتراك مدينتين عظيمتين فقد نشأت حركة جديدة من الافكار والأعمال في صالح الاثنين معاً . فلقد احتك الفكر اليوناني مع فكر آخر متبصر نقاد يختلف عنه تماماً . وهكذا نشأت مدرسة الاسكندرية واتخذت مكاناً مرموقاً في تاريخ الفكر . وهكذا كشفت افريقيا لعالم البحر الأبيض المتوسط عن انتاج فكري جديد وفتحت عينيها على العالم الخارجي ووسعت أفق علم الجغرافيا .

ومما تجدر الإشارة اليه هو ان تأثيرات من عالم البحر الأبيض المتوسط قد دخلت الى قلب القارة الافريقية عن طريق مصر وظلت هذه التأثيرات ظاهرة فترة طويلة من الزمن . فملكة اثيوبيا التي تشكل اليوم السودان المصري الانكليزي قد رأت قوتها تزداد في نفس الوقت الذي كانت فيه قوة جارها تتدهور ؛ ولذلك وفي القرن الأول قبل الميلاد نرى ملكتها (كانداس Candace)^(٢) تهاجم الرومان وتستولي على منطقة النوبة . ولكنها لم تلبث حتى اندحرت رغم انتصارها في بادىء الأمر .

١ - وهي عائلة البطالة التي حكمت بعد وفاة الاسكندر ،

٢ - لقب حملته بعض الملكات الاثيوبيات .

وفي نهاية القرن الثالث نرى حدود الرومان تتقهقر حتى تصل الى منطقة الشلال الأول . كما ان المقابر التي اكتشفت حديثاً في أقصى الجنوب على حدود السودان الانكليزي - المصري هي على الأغلب مقابر ملوك (البليمي *Blemyes*) أجداد (البيدجا) الحاليين ، والذين سيطروا على منطقة النوبة حتى منتصف القرن الرابع .

وأخيراً نقول بأنه مع مجيء الوارثين للحضارة (الميروتكير)^(١) التي هي أيضاً متأثرة بحضارة البحر الأبيض المتوسط ، نقول انه بمجيء هؤلاء نرى العادات والتقاليد الفرعونية تزول من مصر . كما ان الحفريات التي جرت في مقابرهم دلت على وجود طقوس في دفن الموتى قريبة من الطقوس التي كان يمارسها حكام غانا في غرب القارة الافريقية ، ومن بين الأدوات البرونزية التي اكتشفت حديثاً في بلاد (اليوروبا) في نيجيريا ، نرى بعض القبعات الملكية التي تذكرنا بتيجان حكام النوبة . وأخيراً فقد وجد تمثال صغير يمثل (أوزيريس)^(٢) وهو مصنوع من البرونز ، على بعد /٣٠٠/ كم من جنوب (الكونغولو) في الجهة الجنوبية الشرقية من الكونغو البلجيكي .

ان ظهور الفينيقيين في غرب البحر الأبيض المتوسط وعلى شواطئ سيسيل وساردينيا وإيطاليا وإسبانيا ، يعود الى حوالي /١٥٠٠/ سنة قبل الميلاد . كما ان خراب قرطاجة يعود الى /١٤٦/ قبل الميلاد . وهكذا فان شوكة الفينيقيين قد دامت في افريقيا الشمالية حوالي خمسة عشر قرناً من الزمن ، واننا لا نعرف من هذه الفترة الطويلة الا اواخرها وهي فترة الانهيار ، فعندما وصل الفينيقيون الى افريقيا الشمالية كان أهلها يعرفون زراعة الشعير والقمح وتربية الأبقار

(١) نسبة الى مملكة (الميروي *Meroë*) التي لم تظهر بعد اندحار الملكة كانداس ملكة المملكة الاثيوبية .

(٢) اله مصري وزوج ايزيس ووالد اوريس .

والأغنام والخيول ، وربما كانوا أيضاً على اتصال مع جيرانهم المصريين . كما كان هناك القبائل الرحل التي تمتهن السلب وتسكن المروج الواسعة الى جانب المزارعين في السهول والجبال التي ترتادها قطعان الماشية بحثاً عن المراعي . وكان التزاحم بين القبائل يؤدي الى الحروب التي كانت تحتاج البلاد كلها . ومنذ القرن الثالث عشر اجتاز قراصنة صور اعمدة هرقل وبنوا مدينة (غاديز) او (غاديرا ومعناها السور) والتي تعرف اليوم باسم (كاديكس Cadix) ، وانطلقوا منها الى شمال الاطلنطي للحصول على قصدير (كاسيتيريد Cassiterides) وعلى عنبر بحر البلطيق . كما ان (ليكسوس) ، المستعمرة الفينيقيّة على ساحل المحيط الاطلنطي في مراكش هي مشابهة لمدينة (غاديز) بالنسبة لجبل طارق وأقدم من مدينة قرطاجة . وكذلك فان مدينة (اوتيكا Utique) التي تقع عند مصب نهر المجرده ، تسيطر على حوضي البحر الأبيض المتوسط ؛ ولكنها بدأت تضمحل فيما بعد بينما اخذت قرطاجة تحل محلها وتزدهر . وهي التي انشئت حوالي / ٨٠٠ / سنة قبل الميلاد على منفذ احدى المقاطعات الخصبة وعند التقاء عدة طرق تجارية ، والتي استطاعت فيما بعد ان توجد عدة مستعمرات لها تمتد من خليجان السيرت حتى بلاد مراكش على المحيط الاطلنطي .

ويذكر هيرودوت بأن حملة قد جهزت حوالي عام / ٦٠٠ / ق. م بقيادة فرعون (نيشاو) الثاني ضد الفينيقيين . بينما تلقى هؤلاء الأمر بدورة بحرية حول ليبيا ، منطلقين من البحر الأحمر ، وسيعودون من دورتهم هذه بعد ثلاث سنوات وبعد ان يكونوا قد اجتازوا اعمدة هرقل . وان دورتهم هذه كانت موضع جدال شديد . كما كان يُشكك بإمكانية الفينيقيين للقيام بمثل هذه الرحلة البحرية على طول شواطئ أفريقيا في عصر كان السبأيون Sabéens في عدن يعرفون آنذاك بخبرتهم القوية عدا عن انهم كانوا يرتادون الشاطئ الشرقي حتى بلاد نطاليا .

ونذكر بان ازدهار مدينة قرطاجة قد الزمها التخلي عن سياستها الشديدة التي

كانت تتبعها . وبما انها كانت مهددة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط بمزاحمة اليونانيين لها ، فقد انشأت جيشاً قوياً وضمت اليه المرتزقة وسكان البلاد الاصليين ، كما استخدمت سياسة التحالف مع الزعماء المجاورين لها . وبدأت بعد ذلك تهتم بالزراعة لتقوية اقتصادها الذي كان يعتمد على التجارة فقط ، فحصلت على مناطق واسعة واوكلت الى مواطنيها الاشراف على استثمارها من قبل سكانها الاصليين الذين تحولوا الى رقيق يعملون لحساب الفينيقيين . ولكي تحمي حدودها من البدو الرحل فقد انشأت قرطاجة مراكز محصنة ، ولم يمض وقت طويل حتى امتدت سلطتها الى شواطئ اسبانيا الجنوبية وجزر البليار وسردينيا وسيسيل . كما كانت تملك مستعمرات على ساحل الاطلنطي وان احد أساطيلها كان يصل الى نهر (دراع *Draa*) . هذا ما يقوله البعض ، أما البعض الآخر فيرى بانهم توغلوا في الجنوب الى ابعد من ذلك أيام جولة (حنون)^(١) البحرية .

واذا كان المجال التجاري الفينيقي قد شمل البحر الأبيض المتوسط ، فقد أقاموا ايضاً اتصالات مع شعوب (الغارامانت *Les garamantes*) الذين هم على الأرجح أجداد (التواريج) . كما ان (الفزان *Fezzan*) موطن شعوب الغارامانت كانت تشكل مملكة ذات كيان بارز وان عاصمتها القديمة (جرما *Djerma*) قد حافظت على اسمها حتى اليوم . وانه بفضل خط الواحات الذي يربط (الفزان) بالساحل الشمالي ، وبفضل مواضع المياه الكثيرة التي توجد باتجاه السودان فقد أصبحت الفزان طريقاً للمواصلات عبر الصحراء ، ومنذ خمسة قرون قبل الميلاد فقد كان هيرودوت يعرف الطريق التي تصل الساحل بمنطقة الفزان والتي يستغرق قطعها مدة ثلاثين يوماً تقريباً . وفي أيام قرطاجة كانت قوافل (الغارامانت) تحمل الى المدن الساحلية على البحر الأبيض المتوسط الريش وبيض النعام والرقيق الذين جلبوا من افريقيا الوسطى ، ومسحوق الذهب من السودان ، وربما معدن القصدير من هضبة باوتشي في نيجيريا الانكليزية

(١) ملاح قرطاجي في القرن الخامس ق. م. قام بجولة حول افريقيا .

الحالية . كما ان اجتياز الصحراء كان يتم بواسطة الثيران والحيل والحمر لان
الجمال لم يكن معروفاً بعد . وبمكنتنا ان نتصور اولئك التجار تماماً مثل من جاء
بعدهم في القرون الوسطى ، الذين ما ان يجتازوا الصحراء حتى يحطوا رحالهم
في مراكز مؤقتة تقع على طرف الصحراء قرب المقاطعات المجاورة حيث يقدمون
الملح والأقمشة والنحاس والمصنوعات الزجاجية مقابل الذهب الذي جاؤوا
ينشدونه .

ان هذه المبادلات التي دامت زهاء عدة قرون تجعلنا نعتقد بأن القرطاجيين
ومن قبلهم المصريين قد ادخلوا الى سود افريقيا بعض معالم الحضارة ، كما اننا
لا نشك مطلقاً بأن تلك الطرق التي تبدأ من البحر الأبيض المتوسط وتنتهي
في السودان قد كانت موجودة منذ القديم . ومن هذه الطرق نجد الطريق التي
تنطلق من ليبيا الى (البوركو Borkou)^(١) وتصل الى بحيرة تشاد مع تحول
يؤدي الى نهر النيجر ، أما الطريق الثانية فتبدأ من مصر العليا ثم تعبر
الكوردوفان والآوادي ouadai والباجيرمي Baguirmi .

أما ضواحي بحيرة تشاد فقد كانت دائماً على اتصال بمدينة البحر الأبيض
المتوسط بحيث نجد كثيراً من معالمها والتي تمتد حتى تظهر في خليج غينيا .

كما ان الحصان الذي كان قد اختفى من افريقيا الشمالية في اوائل الدور
الأرضي الرابع quaternaire ، لينتقل الى آسيا الوسطى اثر التبدل الذي طرأ
على المناخ . ولكنه عاود فدخل افريقيا عن طريق مصر اثر غزوة
(الهيكسوس)^(٢) كحيوان يستعمل للجبر والركوب ، فهو قد استعمل أولاً
للجبر ثم بعد ذلك للركوب . أما في افريقيا فيبدو انه استعمل لجبر العربات

(١) منطقة من السودان الاوسط تقع في غرب نهر النيجر .

(٢) هذا ما يقوله العالم الفرنسي ماسيرو .

الحربية . وهناك رسوم صخرية ثعين الطريق التي استطاع المغرب بواسطتها ان ينقل الحصان الى جنوب الصحراء في القرون الاولى التي سبقت الميلاد ، وليس بمستبعد ان يكون قد وُجد في مناطق الصحراء خيول مشابهة للتي نقلها المغرب جاءتها عن طريق مصر والسودان الاوسط .

هناك دلائل واضحة للنفوذ المصري في كل أفريقيا الشرقية وحتى في فيجريا حيث نرى احتفالات التنصيب واحتفالات تجديد بعض الملوك المقدسين تذكرنا تماماً بالطقوس المصرية (سيد Sed) .

وكذلك فان فكرة (الملك المقدس) تشاهد في عدة ديانات الا انها لا تحمل ذلك الرباط الضيق الذي بواسطته نرى المصريين وسود افريقيا يربطون بين صحة الملك ووفرة الغلال .

اننا نجهل بالضبط في أي زمن عرف السود زراعة القطن وعمل الخيطان ونسج القطن . بيد ان طريقة النسج العامودية يمكن ان يكون أصلها من مصر ، بيد ان المصريين القدماء لم ينسجوا او يصنعوا الخيطان الا من الكتان . وكذلك صناعة القوارب من القصب وصناعة كلابيب *harpous* عند صيادي (بودوما *Boudouma*) لا تزال آثارها ظاهرة في الرسوم المصرية القديمة . وأيضاً فان صناعة الأوتار والقيثارة المقوسة والطنبور ذو المقبض الطويل وفخاخ الصيد التي تصنع من الخيزران وتربط بأخشاب كبيرة بحيث لا تتمكن الطريدة من الجري عندما تقع قائمتها في الفخ ... هذا عدا كثيراً من الشواهد التي تدل على نفوذ شرقي في أفريقيا الوسطى . ويظهر هذا النفوذ جلياً في صناعة البرونز وفي الصناعات الزجاجية التي عمت عدة مناطق ، وفي الدين ايضاً كعبادة (الاله - الكبش)^(١) (*Belier-dieu*) ، والطقوس في استعمال الفأس المزدوج .

١ - ربما يقصد من كلمة الكبش *Belier* ، برج الحمل أحد البروج الاثنا عشر التي تشكل مجرى الشمس الظاهر .

وأخيراً فقد ثبت أن السيوف ذات القبضات المتصالبة التي كان يستعملها التواريج والبول هي من أصل بيزنطي وحتى دروة قبائل البورنو والأدماوا *Admawa* . ولا نقصد هنا بكلمة نفوذ ، مجرد نفوذ عابر ظهر مرة واحدة ، بل نقصد بهذه الكلمة تلك التيارات من التأثيرات التي لم تنقطع أبداً بحيث أصبح متعذراً معرفة تاريخ دخول كل عنصر من هذه العناصر الحضارية . وإن آخر ما وهبته قرطاجة الى القارة السوداء هو اسمها التي تعرف به اليوم . ففي زمن الحروب الفينيقية كان مؤرخو اللاتين يطلقون اسم (آفري *Afri*) على القرطاجيين وأتباعهم . وفي زمن الامبراطورية الرومانية فان كلمة (أفريكا *Africa*) التي دخلت اللغة الفينيقية بقيت الاسم الرسمي لمقاطعة قرطاجة ، وذلك لتمييزها عن نوميديا *Numidi* وموريتانيا . وحتى في أيامنا هذه نرى العرب يطلقون اسم (أفريكا *Ifrikia*) على البلاد التي ندعوها (تونس) .

ان الكتاب الذي تحدثوا عن تأثيرات مصرية وفينيقية في أفريقيا الغربية ، قد اعتمدوا على وجود اللآلئ الزجاجية القديمة التي وجدت في داخل شاطئء العاج والشاطئء الذهبي (وداهومي *Dahomey*)^(١) ، وحتى في افريقيا الاستوائية . وفيما نعرفه اليوم فإنه من المستحيل ان نعين مصدر وتاريخ هذه اللآلئ التي لم تكتشف كلها في ظروف علمية بحثة . ان هذه اللآلئ هي من بلاد البحر الأبيض المتوسط ولكن يبقى علينا ان نعين احد مصادرها المصرية والفينيقية والرومانية والعربية (والفينيسية *Vénitienne*)^(٢) .

... والواضح ان القرطاجيين لم يتركوا أي دليل يسمح لنا باكتشاف هوية السود الذي كانوا يتصلون بهم . أما العصر الروماني فقد بدأ يتميز بارسال البعثات العلمية . فبعد الحروب الفينيقية وعصر الاضطرابات الذي تبع تلك الحروب ،

١ - احدى مستعمرات أفريقيا الغربية .
٢ - نسبة الى البندقية او فينيسية في ايطاليا .

نرى أوغست *Auguste* ، سيد أفريقيا الشمالية يمارس سلطته التي امتدت حتى حدود الصحراء . ولقد تركز الرومان بقوة في أفريقيا الشمالية التي كانت مقسمة الى مقاطعات هي : مورتانيا ، نوميديا ، أفريقيا ، سيراناييك ومصر . وكان لا بد من حماية هذه المقاطعات ضد غزوات قبائل (الفيتول *Vétules*)^(١) في الغرب ، (والغارامانت *Garamantes*) في الشرق . ولقد أصبحت غزوات تلك القبائل تزداد ضراوة يوماً بعد يوم وذلك بسبب دخول الجمل الى القارة الافريقية في بدء التاريخ الميلادي . وحتى البرابرة الذين يتقنون تربية الجمل وركوبها قد ضاعفوا تحركاتهم في الصحراء القاحلة . والذي يبدو هو ان الرومان لم يتمكنوا من استخدام الجمل ليستثمروا القارة السوداء . واذا كان نيرون قد أرسل بعض قواده لاكتشاف منابع النيل ، فانا لا نعرف في الغرب الا بعض البعثات العسكرية والتي كانت عبارة عن هجمات لصد الغزاة ولحماية أتباع الامبراطورية الرومانية .

واننا نرى بعد سوتنيوس يولينيوس ، وبعد احتلال الفزان *Fezzan* من قبل ك . بالوس في العام التاسع عشر قبل الميلاد ؛ نقول بأن نرى هناك حملتين رومانيتين فقط ، بحيث لا نعرف عنها الا الشيء القليل . كما ان (سيبتيوس فلاكوس) حوالي عام ٧٠ بعد الميلاد قد استطاع الوصول الى بلاد الاثيوبيين في مدة ثلاثة أشهر دافعاً أمامه قبائل الغارامانت . وفي عام ٨٦ نرى جوليس ماتيرنوس يصل منطقة الآجيزمبا (التي تضم بلاد الآير *Aïr* والبورنو) والتي تخص الاثيوبيين والملبئة بحيوان الكركدن .

لم يبد بأن كل هذه البعثات قد وصلت الى نتيجة عملية . والواقع ان الجمهورية الرومانية قد اعوزها اللحاق بالارث القرطاجي التجاري . كما ان التجارة عبر الصحراء لم تترك هكذا دون تشجيع من قبل الرومان أنفسهم . كما ان مدن

١ - شعب بربري قديم .

أفريقيا الشمالية لم تنقطع أبداً عن طلب المنتوجات السودانية من تجار القوافل ، وهذه المنتوجات هي الرقيق ، والعاج ، والریش ، وبيض النعام والحيوانات المفترسة لأعمال السيرك *cirque* ، وأخيراً الذهب ولا شيء غير الذهب .

ونذكر انه بعد دمار قرطاجة فان لبتس *Léptis* او طرابلس هي التي حلت محلها وتسلمت زمام التجارة الصحراوية عبر منطقة الفزان . كما ان قوافل النوميديين *Numidiens* ، بقيت ترتاد بكثرة مدن البحر الأبيض المتوسط ، حتى شملت كل المستعمرات الفينيقية تقريباً ، وهكذا فقد نشأ مزيج من القرطاجيين وسكان البلاد الأصليين أدى الى خلق شعب جديد حافظ على تقاليد المدينة الفينيقية الراقية حتى بعد خراب الدولة كلها ، وبقي يحمل اللغة والعادات الفينيقية .

ونذكر هنا ان انتشار ديانة الاله الواحد وظهور لغة سامية قد مهدا الطريق في افريقيا الشمالية للدين الاسلامي واللغة العربية . وبالإضافة فان الفينيقيين قد جلبوا الى هذه المناطق طريقة غرس الأشجار كالزيتون والتين والكرمة التي لم تكن معروفة قبل وصولهم اليها .

وهناك نفوذ سامي آخر قد دخل افريقيا قبل الاسلام . ففي القرون الاولى التي سبقت عصر الميلاد ، هرب بعض البرابرة اليهود خوفاً من الظلم والاضطهاد ، من افريقيا الشمالية ولجأوا الى منطقة واحات (توات *Touat*) . وبما انهم من العمال الفنيين والتجار فقد تمكنوا من ان يلعبوا دوراً هاماً في تجارة الذهب ، حتى ان بعضهم قد وصل إلى السودان . وفي عام ١٤٨٦ صدر أمر من ملك البرتغال يقضي بنقل اليهود الذين تحت حكمه ويرفضون بنفس الوقت تغيير عقيدتهم الدينية الى شاطئ غينيا . وهكذا ابعد آلاف من الاسرائيليين الى المستعمرات البرتغالية في افريقيا حيث استوطنوا هناك وتزوجوا بنساء أهل البلاد .

ولقد نشأت مستعمرة يهودية في جزيرة (سان تومي) وقد امتزج أهلها

بالسكان الاصليين وكانوا اول من بذر بذور شجر الكاكو الذي يكون اليوم ثروة غنيا افريقية .

وفي القرن الخامس كان الغزو (الفاندالي *Vandale*)^(١) ضربة لافريقيا الرومانية بحيث ان الاحتلال البيزنطي لم يتقد شيئا .

وكذلك مصر نفسها فقد هربت من الغزو الفاندالي حيث اقيم فيها الحكم البيزنطي دون ان يصطدم بالحكم الروماني . بيد ان الحكم كان اسما فقط بحيث لم يمنع مصر من ان تكون عرضة للنهب من قبل حكام المناطق فيها وعرضة لحروب دينية أدت الى انقسام الاقباط وكذلك فقد كانت القبائل المحيطة بها تهاجمها بلا انقطاع .

وفي هذه الفترة كان الاحتلال العربي يقترب منها ؛ فسوريا وما بين النهرين وفلسطين قد وقعت كلها في ايدي العرب المسلمين . وكذلك فان مصر ومن ورائها كل افريقيا اللتين كانتا تعانيان فقدان السلطة في الحكم لم تستطعا الهرب من المصير المحتوم^(١) .

(١) بعض الشعوب الالمانية القديمة .

(١) يقصد بالمصير هنا ، وقوع مصر وافريقيا في يد العرب المسلمين وهو نفس المصير الذي وقعت فيه سوريا وبقية البلاد العربية .

الفصل الثاني

الإسلام في أفريقيا

لقد دخل الدين الاسلامي بعد انطلاقه من الجزيرة العربية قارة افريقيا عن طريقين . سهول البحر الأبيض المتوسط والشاطئ الشرقي .

افريقيا الشرقية

لقد عمل العرب على طول الساحل الشرقي تماماً كما عمل غيرهم من سبأيين وأعاجم وهندوكيين الذين جاؤوا قبل العرب واقاموا فترة طويلة في هذه المنطقة . وفي الواقع فان سلطة ملوك العرب لم تمتد الا على بعض التجار الذين من اصل آسيوي والذين يقيمون قريباً منهم كما تمتد ايضاً على بعض السكان الاصليين الذين يسكنون على حدودهم مباشرة . ولقد وجد العرب مصدر ثروتهم الرئيسي في بيع الرقيق وذلك بواسطة بعض زعماء قبائل السود في الداخل والذين كانوا على اتصال بالعرب ، فكان هؤلاء الزعماء يحصلون على الرقيق بواسطة شن الغزوات . ولقد أثرت تجارة العبيد هذه بعض سلاطين قبائل

كيلوا وسوفالا وزنجبار ، كما سببت الدمار في نفس الوقت لأولئك السكان
التعساء الذين تحملوا ذلك عدة قرون دون ان يحصلوا على فائدة من تلك العلاقات
التي أقامها السود مع الشرق .

ان منطقة الآبيسيبي *Abyssinie* هي عبارة عن مثلث جبلي يشغل الجانب
الجنوب الشرقي من مصر ، وتشكل سلسلة من الهضاب المجزأة حيث تسير
بجاري المياه بسرعة في وديان صنعة تشرف عليها القرى الممتدة فوق المناطق
الصخرية . وبما انها منعزلة عن مصر بواسطة الصحراء النوبية فانه لا يمكن قطع
هذه الكتلة الآبيسينية الا بواسطة موانئ البحر الأحمر . ومن ذلك الممر الوحيد
المحفوف بالمخاطر عبرت موجة من المهاجرين العرب متجهة الى الآبيسيبي نظراً
لخصب هذه المنطقة . وباندماج هذه الموجة مع سكان البلاد الاصليين بدا أن
القبائل العربية استطاعت ان تكون نواة الشعب الآبيسيبي الذي اكتسب
الحضارة السامية . فالقبيلة العربية حبشات *Habashat* قد اعطت اسمها الى
البلاد التي تسكنها وهو (حبشة) وهذا ما تشير اليه الشعوب التي تتكلم العربية .
وهناك قبيلة اخرى هي (آغازي *Agazi*) التي تركت لغتها الى جانب اللغة
القديمة وهي (الغيز *le ghieze*) والتي بقيت لغة الطقوس الدينية ولغة الكنيسة
فقط . كما ان ذكرى الاتصالات القديمة باليمن قد بقيت ظاهرة في الأساطير
القديمة الاثيوبية التي تنظر الى الآبيسيبي على انها بلاد ملكة سبأ وترى ايضاً بأن
العائلة المالكة قد جاءت من ذرية ابن ملكة سبأ بزواجها من سليمان . كما ان
سكان الجزيرة العربية كانوا ينظرون دائماً الى سكان الآبيسيبي كعبيد سود . ولقد
تجمعت شعوب الآبيسيبي الحامية الأصل والمطبوعة بطابع الساميين ، حول
نفسها وشكلت مملكة تعود الى القرن الأول بعد الميلاد ، ألا وهي مملكة
آكسوم *Axoum* والتي تشبه الى حد ما مملكة التيجري *Tigré* . وفي القرن
الرابع بعد الميلاد اعتنق الملك الدين المسيحي الذي انتشر شيئاً فشيئاً حتى
عم جميع انحاء البلاد . وان المسيحية في الآبيسيبي التي تؤمن بالطبيعة الواحدة
للمسيح قد بنيت على اسس مسيحية الاقباط في مصر ، كما اننا لا ننسى وجود

آثار لديانات وثنية ولبعض العناصر اليهودية التي جاءت الى تلك البلاد قبل المسيحية او معها وكانت سبباً في الحماس الذي رافق انتشارها .

أما النفوذ اليهودي الذي ظهر في الحجاز واليمن قبل ظهور الحركة الاسلامية بعدة قرون فهو يبدو لنا واضحاً بوجود الفالاشا *Falacha* ، في بعض المناطق الوعرة والتي تشكل نواة قديمة للسكان اليهود الذين يحتفظون بالاتجاه الارثوذكسي في الدين اليهودي . وفي القرن السابع نرى بعض القبائل السامية التي دفعتها الحركة الاسلامية بعيداً عن البحر ، تذهب بعيداً الى الجنوب بحيث تبقى (جزيرة كورا كي *gouragué*) أقدم شاهد على وجودهم هناك . ونرى في خلال الفترة التاريخية المظلمة التي توالى بعد ذلك ، ان مملكة أكسوم قد احتلت الهضاب العالية في الوسط . وفي القرن الثامن انضمت مقاطعات . (أمهارة وغوديجام وشوا) ما عدا بعض المناطق الصعبة حيث بقي سكان (الآغاو *agaou*) يحافظون على لغتهم الحامية وعلى ديانتهم الخاصة .

وفي اوائل القرن الرابع عشر دخلت الشعوب الصومالية في الدين الإسلامي ، ثم اطلقت نحو هضبة الآبيسين غزوات هدفها الوحيد النهب والتخريب . وقامت حركة اثر ذلك كان لها نتائج هامة ، وهي حركة (الغالا *galla*) وهي تضم شعباً قريباً للصوماليين من الناحية العرقية ؛ ومنذ القرن السادس عشر نرى شعوب (الغالا) تجتاح بموجاتها المتتالية الهضاب العالية وتقتطع بعض المناطق بحيث عزلت السكان الاصليين في بعض الاماكن المتفرقة . ولقد بقي معظم (الغالا) على الدين الوثني ما عدا البعض الذين دخلوا الدين الاسلامي وتعصبوا له وبعضهم الآخر بقي مسيحياً يمجّد العذراء والمسيح مع بقية الهتهم .

وفي اواخر القرن الخامس عشر ظهرت اول دفعة من المسافرين البرتغاليين وكان هدفها الأول السيطرة على التجارة مع الشرق والتي كانت بيد الفينيسيين ، كما جذبتهم الى هذه البلاد شهرة (بریت جان)^(١) . ولم يلبثوا حتى انضموا مع

(١) *préte jean* ، شخص اسطوري ربما كان ملك التتار او ملك الآبيسيني .

ملك اثيوپيا المسيحي . بيد ان المبعوثين اليسوعيين الذين لحقوا بهم قد فشلوا في محاولتهم وابتعدوا عن البلاد في القرن السابع عشر . ومنذ ذلك التاريخ نرى الشعب الآبسيني الجزأ في العالم الخارجي يعيش منطويًا على نفسه ولا يشغله سوى دينه ومدنيته .

افريقيا الشمالية

لقد كان الغزو العربي سريعاً ومفاجئاً في المنطقة السهلية التي تمتد من مصر الى المحيط الاطلنطي . فبعد وفاة النبي قامت حركة بين القبائل العربية التي دخلت الاسلام منذ وقت قصير . وتدعي هذه الحركة بأن أبا بكر خليفة الرسول . ولذلك فقد رأى من الاصلح ان يوجه قوة انصاره الى المناطق الضعيفة التي يسيطر عليها الفرس والبيزنطيون . وهكذا انطلقت جحافل الاسلام من الجزيرة فكانت عبارة عن تزامم خليط من قرصان ونخاسين وغزوات بدوية تهاجم سكان البلاد .

وفي عام ٦٤٦ سقطت مصر بيد العرب كما سقطت طرابلس أيضاً عام ٦٦٧ . الا ان القضاء على الشعوب البربرية كان صعباً للغاية . ومع ذلك فمنذ عام /٧٠٥/ احتل القادمون الجدد من العرب المراكز الرئيسية، وهكذا وجدت الامبراطورية العربية في أفريقيا الشمالية نقطة ارتكاز قوية . حتى هذه الساعة كان هذا العمل يُعدّ أهانة موجهة ضد بيزنطة ولذلك لم يحرك أحد من سكان البلاد ساكناً ضدهم . ولكن ما ان ظهر العرب بمظهر من يريد استغلال البلاد واستئثارها لانفسهم حتى ثار البرابرة في عدة مناطق بزعمامة رجل يدعى (كوسيل *Koceila*) ثم بزعمامة امرأة هي (الكاهنة *Kahena* ملكة جيراوا *Djeraoua* في منطقة الاوراس الشرقية . وكان هذا العمل عبارة عن حركة عامة اضطر العرب المحتلون ان يحاربوها بقوة . فجاءت نجذات من الشرق لتحقيق انتصارهم . وعند ذلك توجه البرابرة لاحتلال اسبانيا وبلاد الغول . ولكن بعد هزيمة بواتيه حصلت

الشقاكات عديدة . فقد غضب المغرب من وطأة الاستعمار العربي ، كما ان الاندفاع الديني قد خلق بعض البدع والحركات العدائية كحركة الخوارج في مراكش . ولكن منذ نهاية القرن الثامن عمت السيطرة العربية كل أفريقيا الشمالية . وبعد فترة من الفوضى الشديدة نرى بمالك من أقوام البرابرة تتجمع حول تلمسان وسجلمسان في الريف الأفريقي . كما ان احد أحفاد الإمام علي صهر الرسول يؤسس في مراكش الدولة الإدريسية متخذاً من مدينة فاس عاصمة له . وفي القرن العاشر ، أعلن زعماء الشيعة ، وهو مذهب جديد في الاسلام ، عن مجيء المهدي ثم أسسوا الدولة الفاطمية التي كانت تميل الى ابتلاع البرابرة والى ضم مصر وفلسطين وسوريا . ورغم قوة هذه الدولة الجديدة فقد استطاع المغرب ان يفلت من حكمها وان يعتمد الادارة على خلفاء (كوردو)^(١) . وحوالي منتصف القرن الحادي عشر أرسل الخليفة الفاطمي قبائل (بنو هلال) وهي قبائل تعتمد على السلب والنهب وتقطن مصر العليا ، الى حاكم القيروان انتقاماً منه لأنه لأنه يرفض الخضوع له . ولقد دمر الغزو الهلالي كل افريقيا الشمالية واعطى البرابرة مثلاً على فوضى الحكم . بيد ان المغرب وحده استطاع ان يتفادى الدمار الشامل بالتجائه الى البرابرة . أما دولة الأدارسة التي كانت في الواقع مجزأة بين اسبانيا والقاهرة فقد بدأت تفقد شيئاً فشيئاً مقاطعاتها — الا ان بعض القبائل من البرابرة والتي لجأت قديماً الى الصحراء قد أرادت ان تحمل على عاتقها عبء الاسلام وأن تعمل من مراكش مركزاً لانطلاقها . وانه بواسطة هذه القبائل انقذ كيان البرابرة في مراكش وتابعت عملية نشر الاسلام سيرها من جديد . ولقد استطاع هؤلاء البرابرة رعاية الابل في الصحراء ان ينقلوا الدين الاسلامي الى بلاد السنغال ، والى المدن التي توجد في جنوب الصحراء . ومنذ عام / ٧٣٤ / وبعد عامين من معركة بواتيه تؤكد المصادر التاريخية العربية عن وجود حملة الى المناطق الجنوبية حيث كانوا يبادلون الأقمشة وملح الشمال مقابل

١ — مدينة في اسبانيا . وعاصمة الدولة الأموية .

لرقيق والصمغ وخاصة الذهب السوداني . كما ان (غانا) (وأوداغست)
(وجاو) كانت تستقبل القوافل التي تتجمع في (سيجيلماس) وتلمسان
(والتيازيت *Tiaret*) وبسكرة وجرما *Djerma* ، وعلى كل حال فقد عاش
الدين الاسلامي في السودان جنبا الى جنب مع الديانة المحلية في جو من التسامح
كما ينير البكري *EL-Bekri* الى ذلك . وفي القرن الخامس عشر قامت حركة
دينية عند (اللمتونا *Les Lemtouna*) وهم جماعة بربرية ملثمة تعيش في تاجان
والأوراد وتابعون في نفس الوقت الى مملكة غانا السوداء . ولقد ذهب زعيم
اللمتونا الى مكة المكرمة لاداء فريضة الحج عام (١٠٣٣) وهناك اطلع على
حقيقة دينه التي يجهلها فقرر من هناك اصلاح رعيته . وفي سبيل تحقيق ما قرره
فقد جلب الى شعبه خطيبا وواعظا من البرابرة يدعى ابن ياسين وافتتح وياه
حملة دينية واسعة . ولم يلبث ان انسحب الاثنان في غمرة من اليأس مع بعض
اتباعهما الى جزيرة تقع في اسفل بلاد السنغال حيث أسسا مكانا للعبادة هناك
(رباط *Ribat*) فعرفوا بعد ذلك بالمرابطين . وعندما كثر عددهم ، خرج
المرابطون من جزيرتهم وبدأ جيش المؤمنين بالهجوم دون سابق انذار . فسقطت
غانا عام ١٠٧٦ وتمكن المرابطون من نشر الدين الاسلامي بالقوة في جميع انحاء
الصحراء الغربية حتى جنوب مراكش . ثم احتلوا بعد ذلك (سيجيلماس
Sidjilmessa) ولكن ابن ياسين استشهد في غمرة الحروب المقدسة فجاء بعده
(ابن تاشفين *Ibn Tachifine*) واسس مدينة مراكش وجعلها عاصمة له .
وفي عام (١٠٨٢) كان المرابطون يحتلون كل شمال غربي افريقيا حتى الجزائر ،
وكانوا يقيمون المساجد في كل مكان . كما ان فكرة الدفاع عن الاسلام ضد
المسيحيين حملت ابن تاشفين الى اسبانيا . بيد انه توفي وترك وراءه مملكة واسعة
تضم من اسبانيا حتى نهر (الايبر *Ebre*) مع اكبر قسم من المغرب . ثم يحيى
بعد ذلك دور مراكش التي قادت بعد تلك الفترة مجموع الأحداث في افريقيا
الشمالية . اما مصر فلا شك انها بقيت مستقلة عن العرب بيد انها كانت مقسمة
بالاضطرابات الداخلية من ثورات محلية وانقسامات دينية... الخ. ولكن بعد

تُفسخ المملكة الفاطمية أسس صلاح الدين الأيوبي عام ١٤٧١ عائلة حاكمة جديدة بعدهم، إلا أن المماليك استطاعوا أن يحلوا مكان عائلة صلاح الدين وأن يستولوا على الحكم بعد قرن من الزمن. وبما أن مصر تكون الخط الشرقي من القارة الأفريقية فقد كان عليها أن تقاوم بكل قواها ضد الأكراد والمغول والأتراك،

وفي القرن الثالث عشر قامت عائلات بربرية حاكمة وكان مركزها تونس وتلمسان. وكان على مراکش وحدها التي انطلق منها الاحتلال أن تضرم نار الحرب المقدسة في كل لحظة.

وبما يجدر ذكره بأن تعاقب العائلات الحاكمة في أفريقيا الشمالية ومشروعات الفتوحات كانت تقوم باسم التشريع الديني والرجوع إلى الخط الإسلامي القويم. وكان المرابطون يريدون تطهير عقيدة الذين دخلوا الإسلام من جديد ورفع الشوائب منها وإدخال الدين الإسلامي في قلوب الأعداء. وأنه في سبيل تغيير التقاليد الفاسدة التي تأثرت بالاندلسيين ولإقامة عقيدة التوحيد المقدسة نرى المهادين *Les Almohades* يستولون على زمام السلطة ويطردون المرابطين. بيد أن المهادين تخلوا عما وعدوا بالقيام به فتركهم أصحابهم والتابعون لهم فضعفوا وأدى بهم الأمر إلى احتلال مراکش من قبل (الميرينيين *les mérinides*) ولكن لم يمض وقت طويل حتى قامت حركة إسلامية جديدة فطردت الميرينيين لايمانهم الفاتر واستلم زمام السلطة الأشراف (السعديون *Saadiens*) وجاء بعدهم الأشراف (العلويون *Alaouites*) أحفاد النبي وبفضل قوة هؤلاء الزعماء الدينية استطاعت مراکش أن تفلت من الاحتلال التركي الذي خيم على باقي أجزاء المغرب كلها. والذي نراه هو أن السعديين ومن بعدهم العلويين لم يظهروا أي تقصير في الدور الديني الذي أوكل إليهم بل كانوا بحق أبطال الحرب الدينية.

والحقيقة أن أغلب أسس الوحدة السياسية تكمن في السلطة الدينية؛ لأن الترابط الديني في أفريقيا الشمالية كان يحتل مكان الولاء للحاكم وهو الذي يخلق أو يهدم العائلات الحاكمة وحيث لا يمكن لأي تنظيم آخر أن يؤمن لنفسه البقاء إلا بذلك الترابط.

لقد قارنوا في الماضي الدولة المراكشية باقطاعية ؛ ولكنها اقطاعية ذات روابط هزيلة اذ ان كل شيء يستمد من شخص الحكم فقط . وفي تاريخ مراكش توالت الانكسارات والانتفاضات والتوسعات ثم الانكماش والتراجع ؛ فلقد ضمت مراكش اسبانيا اليها في فترة من الزمن وكذلك افريقيا وموريتانيا وامتدت حتى وصلت النيجر . وكان الذهب والرقيق يتدفقون على مدينة فاس ثم لا يلبث حتى ينقطع تدفقهم هذا .

نفس العظمة والتوسع اللذين رأيناهما في مراكش نراهما في بعض الممالك السودانية . ولكن مع وجود الفرق بين بقية انحاء المغرب وافريقيا السودانية ؛ فلقد عرفت مراكش مبادئ الوحدة العميقة من الناحية البشرية والجغرافية وليس ذلك بسبب الاطار الطبيعي من الجبال بل بسبب صلابة وشجاعة سكانها البرابرة ، وميلهم الشديد للاستقلال وهذا ما تدين له مراكش كونها استطاعت المقاومة والاستمرار . وعندما طردت مراكش الاسبان والبرتغاليين نشأ الحقد المسيحي كما نشأ مع الاتراك على الساحل الجزائري - التونسي . وهكذا فقد قطعت جميع الاتصالات واصبح البحر الابيض المتوسط هوة عميقة لا يقدر أحد على اجتيازها .

السودان

والآن ماذا كان يمثل يا ترى القسم الغربي من القارة السوداء في زمن المهاجرين العرب الاول ، بل وماذا كانت عليه حضارة تلك المنطقة في هذا الوقت بالذات . ؟ باستطاعتنا الحصول على بعض المعلومات حول هذه النقطة من الوصف الذي تركه لنا البكري *El Bekri* لملكة غانا في القرن الحادي عشر .

ان كلمة غانا هي عبارة عن لقب كان يطلق على الحاكم هناك ثم اصبح يطلق على مقره ثم توسع فأصبح يطلق على كل البلاد . أما مكان العاصمة فلم يكن ثابتاً دائماً ؛ اذ انها تغيرت عبر الاجيال . كما اكتشفت اطلال واسعة في اربعة او خمسة

اماكن بعيدة تقع في الجهة الغربية من اعالي مصب نهر النيجر . ولقد وصف لنا البكري حين من البيوت المبنية بالحجارة والخشب ؛ فالحي الاول ويقطنه المسلمون الذين يتقنون فن التجارة والحي الثاني الذي يقطنه الملك وحاشيته قرب احد الاحراش المقدسة حيث تقام فيه الاحتفالات الدينية .

وكان ولي العهد هو ابن اخت الملك . أما هو فكان يتزين بالعقود والأساور وكان الذهب يظهر بكثرة في كل شيء يحيط به ، على اسلحته وخيوله وحتى على كلابه . وعندما يموت الملك يدفن في غرفة تحت الارض مع بعض الخدم والطعام الاحتياطي واسلحته وحتى زينتته ويُعطى الجميع بكومة من الحجارة . كما ان الملك كان مطاعاً في مملكته التي يخيم عليها الهدوء والامان . بينما كان المسلمون يمارسون ديانتهم بحرية وكانوا يشغلون مراكز هامة الى جانب الملك ، اما الحي الذي يسكنون فيه فكان يحتوي على اثني عشر مسجداً . ويبدو ان البكري لم يصف لنا فيا وصف الا الصحراء والساحل . اما ما نعرفه عن البلاد التي تقع في الجنوب فيكاد لا يذكر . تلك البلاد التي كانت ممنوعة عن الخيل والجمال بسبب رداءة مناخها ووجود ذبابة تسي - تسي . كما كانت ممنوعة عن الاجانب من قبل ملكها الذي كان يخاف من ان تعرف مصادر ثروته الحقيقية . هذه البلاد هي ما تعرف اليوم بمناطق (البامبوك والبورى) الغنيتين بالذهب .

لقد تأسست مملكة غانا في القرن الرابع بعد الميلاد من قبل جماعة من البيض على الأغلب ثم جاءت بعدهم عائلة حاكمة من السود في القرن الثامن . ولقد سيطرت هذه الدولة على السودان الغربي بأكمله . ولكنها سقطت بعد قرن من الزمن تحت ضربات المرابطين بعد ان قاومتهم مدة خمس عشرة سنة ١٠٥١-١٠٧٦ . غير ان الحروب الداخلية اضعفت المرابطين في الجنوب بحيث زالت سلطتهم بينما وصل المرابطون في الشمال الى قمة مجدهم وعظمتهم .

ولقد دخلت بعض القبائل السوداء في الدين الاسلامي هرباً من ظلم المرابطين

فقط ، وهذه القبائل هي التي كانت تجاورهم وتحتك بهم مثل : الستوگولور ، الساراكولي ، الديولا وقسم من قبائل الماندينج . ولقد استطاع الدين الاسلامي بقوة السيف والسياسة معاً ان يصل الى صفوف الامراء بينما بقيت الكتل الشعبية محافظة في طقوسها القديمة .

ولقد ادى انتصار المرابطين ثم انخداهم الى نتائج خطيرة :

فقد جمعت مملكة الساحل القديمة بعض الامارات التي ترتبط بها واستقلت نهائياً . وهناك مملكة سوداء ثانية وصلتنا شهرتها وهي مملكة مالي *mali* وتسمى (المملكة المالينكية او الماندينجية) . وتبقى أصول هذه المملكة مجهولة ولا تدخل في سياق التاريخ الا في اوائل القرن الثالث عشر في أيام سوندياتا ، وهذا الأمير الذي سمعنا بذكره من الملاحم القديمة استطاع عام ١٢٣٥ ان يملك القوة الكافية ليخرج بلاده من تحت وصاية سومانفورو ملك السوسو . وفي عام ١٩٤٠ استطاع سوندياتا أن يدمر غانا وأن يثبت حكمه عليها . ثم انطلق يضاعف فتوحاته حتى تمكن من ان يبني لحسابه مملكة واسعة الأرجاء . وحتى من جاء بعده فقد توغلوا نحو الشرق فأخضعوا بذلك القسم الأعلى لمصب نهر النيجر .

وها هو ابن بطوطه الذي يصف لنا مملكة مالي التي زارها عام ١٣٥٢ بعد مضي وقت قصير من موت أميرها الشهير (كونغو موسى *Kongos moussa*) . ولقد قام موسى بأداء فريضة الحج عام ١٣٢٤ مع حاشية كبيرة فأدهش العرب بكرمه واحسانه . ثم جلب معه من هناك عدداً من رجال المسلمين المشهورين نذكر من بينهم السهلي *E.S. Saheli* وهو مهندس معماري وشاعر بنفس الوقت واليه ينسبون خطأً ادخال فن البناء الى السودان ، بحيث قام بتجديده لا بادخاله . ولقد اقام ملك مالي الذي كان يحكم من الغابات حتى الصحراء علاقات مع حكام مصر ومراكش . كما استدعى اليه بعض المتعلمين من العرب

وبعض تجار المغرب وهكذا وصلت شهرة مالي إلى أوروبا . وفي القرن الخامس عشر بدأت تدخل مالي في دور الانهيار بسبب ضعف أمراءها وظلم حكامها ؛ فاستولى التواريج على (تومبوكتو)^(١) عام ١٤٣٥ ، وكذلك تخلص شعب (السونجي)^(٢) من سيطرة مالي بعد أن خضعوا لها زمناً طويلاً ، وكذلك قبائل الموسي *mousi* فقد بدأت تشن هجماتها حتى قطعت نهر النيجر . كل هذه الممالك هي دول على الأرض وهي تقوم في مناطق مجاورة للسواحل البحرية ومع ذلك فالعالم المتمدن يجهل كل شيء عنها .

أما الآن وفي هذه الحالة فلا نرى مانعاً يمنع العرب اسيااد المغرب من أن ينزلوا حتى بلاد السنغال بل وأبعد من ذلك في عصر كانت منازلهم فيه تظهر على الساحل الشرقي إلى أبعد من مدينة سوفالا *Sofala* . وهكذا يمكننا القول بأن القوافل كانت تكفي للتجارة عبر الصحراء . وإذا ما نظرنا إلى الخارطات الجغرافية التي تمثل أفريقيا قبل القرن الخامس عشر بدت لنا بشكل غير جلي بعض الذكريات عن تاريخ ممالك قديمة كموريتانيا وأفريقيا ونوميديا ونازيمون وحيثوليا والغارامنت وطرابلس . أما في داخل القارة فلا نرى أثراً لهذا رغم ما يشتهر به من وجود مخلوقات عجيبة وخيالية .

لقد انتقلت السلطة بعد سقوط مالي إلى قبائل السونجي الذين يقينون في منطقة النيجر الوسطى متخذين من مدينة (جاو) عاصمة لهم . ولقد كانوا يملكون إلى جانب قوتهم العسكرية أسطولاً حربياً صغيراً . ولكن مملكتهم لم تمتد بعيداً إلى الغرب على عكس مملكة مالي إلا أن نفوذهم امتد نحو الجنوب حتى وصل إلى (آغاديز *Agadès*) . كما أن أشهر حاكم ظهر بينهم هو آسكياء محمد الذي حكم من ١٤٩٣ - حتى ١٥٢٩ كما أدى فريضة الحج عام ١٤٩٥ يحيط به موكب عظيم ، كما صرف أثناء زيارته هذه مئة ألف قطعة ذهبية للزكاة ولأنشاء

(١) مدينة في افريقيا الغربية . (٢) قبائل من السودان الغربي .

مراكز الاحسان في المدينة المقدسة . ونذكر بشأن الخليفة العباسي آنذاك قد عينه لدى عودته الى بلاده كوكيل عام على كل افريقيا الغربية .

وفي أواخر القرن السادس عشر دخل حاكم جاو في نزاع من أجل بعض مناجم الملح في الصحراء مع السلطان السعدي في مراکش وهي حجة أظهرها السلطان ، لأنه كان في الحقيقة يحسده على ثروات السودان التي تحت يده . ولقد أرسل السلطان فرقة من الاسبان المرتدين بعد ان سلحهم ببنادق البارود ولم يلبث الحاكم الاسود حتى اندحر أمامهم فنهبوا مقاطعاته وانتهى الأمر بسيطرة السلطة المراكشية على مناطق النيجر الوسطى . بيد ان وقوع هذه البلاد في يد جماعة من المرتزقة جعلها تخضع لنوع من الاستغلال البشع وبقيت حالة البلاد كما هي عليه حتى عام ١٦٦٠ حيث انهار كل شيء . وعندها قامت جماعة من قبائل الماندينج التي لم تدخل الاسلام ويطلق عليهم اسم البامارا ويسكنون في منطقة (سيجو Ségou) فأعلنوا استقلالهم ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت قوتهم في المنطقة السودانية . والحقيقة ان تفوق اليامارا الذي دام حتى منتصف القرن التاسع عشر لا يمكن مقارنته لا من ناحية القوة ولا من ناحية الاتساع مع من سبقه . ولقد تقاسم هذا التفوق البامارا في سيجو والبامارا في كارتا Kaarta ، بيد ان ذلك لم يمنع قبائل البول Peul في (ماسينا) من تأسيس مملكة مستقلة وان يضموا اليها منطقة (تومبوكتو) . وعلى العكس فان قبائل البول الوثنية في منطقة (فوتاتورو) قد قهروا في أواخر القرن الثامن عشر من قبل قبائل (التوكولور) المسلمين والذين أسسوا بعد ذلك دولة دينية على اساس ملكي انتخابي . ودامت هذه الدولة حتى انضمام هذه البلاد الى المستعمرة الفرنسية في السنغال . وفي منطقة (فوتاديالون) التي اصبحت بوتقة اسلامية نرى الحاج عمر الذي ظهر فيها عام / ١٨٥٠ / تقريباً وقد انشأ جيشاً قوياً صعد به الى الشمال وفرض سلطته بسرعة على كل المنطقة السودانية وبقي كذلك الى ان استطاعت القوات الفرنسية ان تقهره .

وآخر فاتح سوداني نذكره هنا هو (ساموري توري) الذي يعود أصله الى غينيا العليا وهو آخر من اشتهر بصيد الرقيق في تلك المنطقة البائسة . وكانت جيوشه التي تتألف من متطوعين ومن أصحاب البلاد نفسها ، تباع أسراها او تبادلهم مقابل الحصول على الاسلحة والذخائر في ليون وسييرا وليبيريا . وبينما ساموري يندحر أمام القوات الفرنسية من السودان وأعالي غينيا كان ينهب كل البلاد حتى منطقة الفولتا السوداء ، الى ان اسره الفرنسيون عام ١٨٩٨ وبقيت ذكراه ماثلة في المناطق التي اجتاحتها .

أما تاريخ السودان الأوسط فلا نعرف الا ما ندر عنه وذلك لقلة المصادر الخطية ولعدم وجود تقاليد واضحة محلية ، كما ان عملية الدخول في الدين الاسلامي والتنقيب في البلاد الواقعة شرقي نهر النيجر يعودان الى زمن قريب وليس ببعيد . كما ان منطقة قبائل الهاوسا *Haoussa* 'تحدد ما بين السونجبي وغرب البورنو ، وتعمل هذه القبائل في الزراعة والتجارة وهم نشيطون جداً وقد اعتادوا على الأسفار الطويلة حتى أنهم كانوا يصلون الى أفريقيا الشمالية . وتحدثنا الرواية بأنه في أوائل القرن الحادي عشر ، يوم كانت تحكم مدينة (دورا *Daura*) العظيمة ملكة جاءت بعد تسعة حكام سبقوها ، وتقول الرواية بأن البلاد قد تعرضت للخراب بسبب وحش هائل كان يمنع السكان من السعي وراء رزقهم ، حتى جاء احد الرجال البيض مع من جاؤوا من جهة الشرق او الشمال وهو (ابن ملك بغداد) فتمكن من القضاء على ذلك الوحش وتزوج من الملكة وأنجب منها سبعة أولاد انشأوا فيما بعد السبع مقاطعات الاولى لملكة الهاوسا : ومنها (كانو *Kano*)^(١) التي زارها (ليون الافريقي *Léon l'africain*)^(٢) في القرن السادس . (وجوبير *Gober*) التي تشتهر بنسيجها القطني ويجلودها ... وكاتيسنا *Katsena* وكل هذه كانت حتى القرن الخامس عشر تابعة الى

١ - مدينة في السودان غرب نيجريا .

٢ - احد الجغرافيين العرب ولد في غرناطة ١٤٨٣-١٥٢٦ .

(كيبى Kebbi) التي تقع في الجنوب الغربي لمنطقة (سوكوتو) وحيث ان جميع سكانها يشكلون مزيجاً من السونجى والهاوسا . وفي عام ١٥١٥ نرى (ملك) الكيبى الذي كان متحالفاً مع السونجى يحتل آغاديز ، ثم لم يلبث حتى انفصل عن حليفه . وفي ذلك العصر تماماً توحدت دويلات الهاوسا لتتحرر ثم عاشت بعد ذلك في جو من التنافس فيما بينها ، أما الدين الاسلامي فقد بدأ يتسرب شيئاً فشيئاً بين صفوفهم . حيث نرى الأمراء ومعهم بعض أتباعهم يدخلون الدين الاسلامي منذ منتصف القرن الرابع عشر ، ولكن أحد المحاربين المتعصبين واحد أبناء شيوخ التوكولور ويدعى (عثمان دان فاتيوا) من (فوتاتورو) هو المسئول عن دخول هذه البلاد في الدين الاسلامي . وقد استطاع عثمان هذا على رأس جيش من المرتزقة ان يهاجم الهاوسا أسيا داجداه ويهاجم رعاة (البول) في (غوير) . واستطاع اخضاع كل البلاد من النيجر حتى البورنو . وحوالي عام ١٨١٥ توفي عثمان ، بيد ان من جاء بعده لم يكونوا قادرين على تسيير مملكة مترامية الأطراف ولهذا فقد اندحرت أمام القوات الانكليزية عام ١٩٠٤ عندما احتلت هذه القوات سوكوتو .

اما السهول الواقعة في شرق الهاوسا والتي تشكل منخفض بحيرة تشاد فقد كانت مأهولة بسكان من السود الذين امتزجوا بعناصر بربرية وعربية . وكانت تضم هذه المنطقة اقليمين جغرافيين ، الاولى وهي (كانيم) في شرق البحيرة والثانية (بورنو) في الغرب . بيد اننا نجهل كل شيء عن هذه المنطقة حتى نهاية القرن الحادي عشر ، عندما قام أحد حكام (تيبوا) أو (تيدا) نسبة الى تيبستا ؛ ونشر سلطته على منطقة الكاوار وتيبستا والبورنو . وفي نهاية القرن الثاني عشر ازيمحت العائلة المالكة بواسطة أحد رجال المسلمين من قبائل الكانمبو Kanembou الذي حمل لقب (مايي moi) . ولكن خليفته الذي جاء بعده لم يكن قادراً على الحكم ، ولذلك فقد ثارت عدة شعوب كان يحكمها وبدأ عهد من الاضطرابات الذي امتد زمنياً طويلاً ؛ ومن الشعوب التي ثارت

نذكر قبيلة (الساو Sao) التي اشتهرت بصناعة الخزف حيث اكتشف مؤخراً من بين آثارهم التي تركوها . وفي عام ١٣٥٣ نرى ابن بطوطه الذي عاين من تومبكتو الى توات (touat) يحدثنا عن منطقة البورنو التي تبعد مسير اربعين يوماً والتي يسكنها جماعة من المسلمين وعلى رأسهم ملك يسمى (ادريس) . ولقد وصلت مملكة البورنو الى اوجها في عهد ادريس الثالث في نهاية القرن السادس عشر ، وكل ذلك بفضل استخدام السلاح الناري الذي كان يجلبه الامير من طرابلس . ولقد امتدت سلطته حتى شملت (كانوا وزندار والآير) بالإضافة الى كانيم وحتى بحيرة (فيتري Fitri) . كما سيطر على مجموعة البلاد التي يسكنها شعب (التيدا) . واما في الجنوب فقد وصل الى الماندارا (والكوتوكو) والموزكو . واتنا لنقرأ في (طارق الفتاش Tarik el fattach) ما يلي : (هناك في العالم اربع سلاطين ما عدا طبعاً سلطان القسطنطينية العالي ، وهم سلطان بغداد ، وسلطان القاهرة وسلطان بورنو ، وسلطان مالي) .

اما من جاء بعد ادريس الثالث فلم يقدرُوا على تدبير هذه المملكة الواسعة مما جعل بعض الشعوب تستعيد حرياتِها وتعلن استقلالها كما كانت في الماضي والبعض الآخر ينضم تحت سلطة حكام آخرين .

وفي عام ١٨٠٨ نرى (عثمان دان فوديو) الذي احتل بلاد الهاوسا يهاجم من جديد البورنو . كما ان احد رؤساء (الكانيم)^(١) استطاع على رأس جيش من السود وعرب مقاطعة (شوا Choa)^(٢) ان يدحر جيش (التوكولور Toucouleur) وان يحمل معه الى العاصمة المايي احمد Le mai Ahmed الذي هزمه . وبقيت السلطة الفعلية بيد هذا الزعيم المنتصر . وجاء بعده ولده الذي اصبحت سلطاناً على البورنو عام ١٨٤٦ وهو الذي اسس العائلة الحاكمة الثالثة .

(١) بلاد سودانية في افريقيا الاستوائية الفرنسية .

(٢) مقاطعة من بلاد الأيبسيني التي جاء اليها العرب من الجزيرة العربية .

ثم جاء بعده الى الحكم خليفته هاشم *Hachem* بيد انه لم يلبث حتى اندحر أمام قوة احد المغامرين الذي يدعى رباح عام ١٨٩٣ حيث قتله ؛ ولقد قتل رباح ايضاً بعد فترة من الزمن في كوسيري *Kousseri* عند التقاء نهري الشاري واللوغنو من قبل فرقة عسكرية من الفرنسيين وبعد موت هاشم اعترف الانكليز بابن اخيه سلطاناً على البورنو تحت الحماية الانكليزية .

اما في جنوب (كانيم) فنرى مملكة باجيرمي *Baguirmi* التي تأسست في القرن السادس عشر ثم دخلت في الدين الاسلامي في القرن السابع عشر . وكل ما فعلته هذه المملكة هو انها مرت من تحت نير البورنو جارتها القوية الى نير (الأوادي *Ouadaï*) اي انها بقيت تابعة لغيرها طوال حياتها .

كما ان التاريخ يحدثننا عن ملوك الأوادي المشهورين بقساوتهم وظلمهم . اما البلاد التي عرفت باسم الأوادي فهي تشمل البيرغو *Birgou* ودار صالح ، وكانت تسكنها بعض القبائل العربية الصافية وبعض قبائل السود . كما ان دخول الأوادي في الدين الاسلامي يرجع الى القرن السابع عشر ، بفضل احد احفاد الخلفاء العباسيين الذي جاء من مصر الى تلك البلاد . وكما هي حال الأوادي فكذلك هي حال دارفور جارتها الشرقية التي اصبحت تحت سيطرة (التونجور *Toundjour*) الذين ينتمون الى اصل سامي ولكنهم لم يدخلوا الدين الاسلامي . الا ان العائلة المالكة قد اقصيت عن الحكم بواسطة احد رجال المسلمين الذي يدعى (سولون سليمان) . وفي منتصف القرن التاسع عشر احتلت القوات المصرية كوردوفان التي كانت تابعة لدافور وهي التي ضمت الى السودان المصري عام ١٨٧٤ . اما السودان الشرقي فكان مصرياً ولكن اسماً فقط . ففي عام ١٨٧٠ - ١٨٧١ ، زار العالم النمسوي شوينغورث تلك المناطق فوجدها في حالة يخبم عليها الدمار على ايدي تجار العبيد ؛ حيث ان كل تاجر كان يحتل اقليماً معيناً خاصاً به ويحميه باقامة مراكز وقائية لرد هجمات المعتدين ولأسر كل من يقع في ايديهم من انسان وحيوان . حتى ان قوة هؤلاء التجار ازعجت الحكومة

المصرية . فاستدعت اقوى واحد فيهم وهو زبير باشا حيث قبضت عليه وسجنته . ورأى تجار دارفور بأن مثل هذا الاجراء يشكل انذاراً لهم ليمتنعوا عن تجارتهم . فقامت حركة ثورية في البلاد يقودها ابن زبير باشا الا انه اندحر وتفرق عسكره ، بيد ان ثورته كانت باعثاً لمغامرتين كبيرتين مز بعده . وهما مغامرة رباح والمهدي .

فرباح هذا هو اخو زهير باشا بالرضاعة والمسؤول الاول لديه ولذلك فقد اعتصم في سجن الغزال ثم انتقل الى جنوب بحيرة تشاد ، وهناك تصدت له احدى الفرق الفرنسية وقضت عليه . وبهذا العمل تكون قد وضعت حداً للحوادث التي دامت مدة (٢٢) عاماً خيم خلالها الخراب والدمار على جميع انحاء السودان الأوسط .

اما المهدي خليفة رباح فقد كان سوداني الاصل مثل رباح تماماً وكان ينتمي الى عائلة نوبية واسمه الحقيقي هو محمد احمد . وفي عام ١٨٨١ أعلن محمد احمد نفسه مهدياً بعد ان قضى على حاكم (فاشودا) في جبال كوردوفا . وفيما بين عام ١٨٨١ - ١٨٨٤ احتل المهدي بصورة متتالية كلا من كوردوفان ، ودارفور وبحر الغزال . وفي عام ١٨٨٥ دخل المهدي ام درمان ظافراً ثم احتل الخرطوم بعد ذلك وحكم بالموت على (غوردون باشا)^(١) ، وتوصل المهدي الى السيطرة على ثمانية اعشار البلاد التي عُرفت بعد خمسة اعوام باسم السودان المصري . ولقد مات المهدي بعد وقت قصير وجاء بعده عبدالله الذي يعود اصله الى دارفور . ولقد جهز عبدالله جيشاً من ابناء البلاد وأرسله الى الأبيض ، فاحتل (الكوندار) ونهبها عام ١٨٨٨ . كما نذكر بأنه بعد فترة قصيرة من هذا التاريخ وصلت حركة الدراويش الى نهايتها ايضاً . وفي عام ١٨٩٦ احتلت القوات الانكلو - مصرية دونكولا^(٢) Dongola . وفي العاشر من تموز عام ١٨٩٨ دخل الجنرال

١ - هو شارل جورج انكليزي وكان حاكم السودان .

٢ - مدينة في منطقة اثيوبيا وهي عاصمة كوندار .

مارشاند منطقة فاشودا . كما استولى كيتشنر على ام درمان في نفس العام .
وفي سنة ١٨٩٩ هرب عبدالله الى كوردوفان وهناك هزمه الانكليز ثم قتلوه .

وباختصار فان الاسلام قد وصل الى قلب القارة السوداء عن طريقين؛ الأولى
هي الطريق الغربية التي تبدأ من المغرب حتى تصل الى نهر النيجر .

وأما الطريق الثانية فتأتي من مصر بواسطة منطقة اعالي النيل ابو بواسطة
طرابلس . ومن هذين المنفذين المعروفين رأينا كيف ان مصر وقرطاجة وبيزنطة
استطاعت ان تحمل حضارة البحر الابيض المتوسط الى قلب خليج غينيا . ولقد
حافظت كل من الموجتين الاسلاميتين على صفاتها الخاصة . فالموجة التي جاءت من
الجهة الغربية وحملتها قبائل البول في القرن التاسع عشر الى بلاد الهاوسا وحتى
بلاد الآداماوا ؛ هذه الموجة جاءت من اصول بربرية . كما ان الدين الاسلامي
الذي كانت تحمله فانه يتبع في اسسه عقيدة المرابطين ، بحيث نرى تغييرات
كثيرة قد طرأت عليه : فالحج الى بيت الله أصبح متعباً ومحفوفاً بالمخاطر كما ان
احترام رجال الدين قد تضخم حتى أصبح نوعاً من العبادة لهم وللأمكنة التي
وطأتها اقدامهم ، وكذلك فان قراءة القرآن قد أصبحت تستعمل للرقوات
السحرية كما انتشرت عادة حمل التماثيل التي تحوي بعض الآيات المكتوبة على قطع
من الجلد . ولقد أعجبت التماثيل المسلمين وغير المسلمين ولم تلبث حتى أصبحت
صناعة الشيخ او المعلم *Maalam* الذي يحضرها ثم يطهرها ويبيعها أخيراً .

أما الموجة الشرقية فقد كانت تبحث عن خلق اتصال مباشر مع اليمن عن
طريق مصر وطرابلس . ولقد ظهرت بشكل قوي بانضمام السنوسيين لها . ورغم
انها انطلقت من الحركة الوهابية إلا انها بدأت من طرابلس ووصلت الى (كانم
او عام) والآوادي والبوكو حتى اندسر اتباعها امام آغادينز *Agadés*
عام ١٩١٧ من قبل القوات الفرنسية . اما المسلمون في السودان الغربي الذين
لا يعرفون شيئاً عن الحركة الوهابية فقد نسوا الحركة السنوسية . وفي اي مكان

صل إليه احدى هاتين الموجتين نراها مشتركتين في الاضطرابات التي تحدث في ذلك المكان ، وان تاريخ السودان الأوسط يشهد على ذلك في البورنو وكايم والباجيرمي . وفي كل مكان نرى الدخول في الدين الاسلامي يطول ولكنه غير ثابت او مركز ، وكذلك فاللغة لم تلعب الا دوراً ضعيفاً لما ان التشريع القرآني لم يطبق أبداً على غير المسلمين ؛ وأخيراً فان عمليات اقتناص الرقيق التي امتدت من بحيرة تشاو الى النيل قد دمرت السودان الأوسط . أما الشيء الذي أخذته قبائل البول من العرب (وهذا نادر جداً) وكذلك السودان الغربي ؛ هذا الشيء هو الثياب العربية . حيث نرى الرداء الواسع والمعائم الفاخرة التي تتعارض تماماً مع عري غالبية الفلاحين السود ، كما ان هذه الملابس قد اصبحت فيما بعد تدل على الثراء والعلو الاجتماعي . والواقع انه حتى مجيء الاوروبيين لم تكن أفريقيا المسلمة قد اتحدت تماماً بالعالم الاسلامي . واننا نرى في هذه الايام النفوذ الاوروبي الذي رغم سيطرته هناك فقد سهل كثيراً الاتصالات بين افريقيا والشرق . وكذلك فقد أصبح الحج الى مكة المكرمة لا يشكل أي خطر بعد اليوم ، فالسيارة او الطائرة يقومان اليوم برحلة يحتاج الانسان لكي يقطعها الى عدة اسابيع .

واخيراً فقد دُعي الاسلام في أفريقيا السوداء الى اقامة علاقات ضيقة مع مصر وتركيا وإلى تطويره في نفس اتجاه هاتين الدولتين من الناحية الاجتماعية والدينية .

الفصل الثالث

ممالك افريقيا السوداء

ساحل غينيا

اذا ما سرنا على طول المنطقة الساحلية ابتداء من مصب نهر السنغال فاننا نصادف قبائل الأولوف *Ouolof* التي تقسم الى ثلاث ممالك صغيرة هي أوالو *oualo* وجولوف *djolo* وكايور *Cayor* . وهي ممالك عُرفت دائماً بتنظيماتها الخاصة . ثم نصادف بعد ذلك مملكة قبائل السيرير *Sérères* الكبيرة في منطقة (السين *Sin*) التي عرفت دائماً الزراعة المزدهرة . وبعيداً الى الجنوب نصادف أيضاً في منطقة فوتا *fouta* الجبلية مزيماً من قبائل السوسو والبول والتوكولور والسارا كوللي والماندينج ، يؤلفون دولة الفولا *foula* وسكانها عبارة عن رعاة ومزارعين مسلمين يتكلمون لغة البول ، وحكومتهم دينية يمكن مقارنتها بدولة (فوتاتورو) ، حيث تذوق الدراسة والأدب محترم فيها غاية الاحترام .

واخيراً فاننا نصل في طريقنا الى مجموعات قبلية عديدة دخلت بينها عناصر من البول والماندينج ، فأقصوا هذه المجموعات الى المناطق المستنقعة على الساحل

أو الى حوافي الجزر المليئة بالغابات . أما ما نعرفه عن ماضي هذه الجماعات فيكاد لا يذكر ، بل كل ما نعرفه هو أنهم كانوا بالنسبة لجيرانهم الأقوياء مستودعاً من الرقيق يباعون الى النخاسين فيأخذونهم عبر الاطلنطي حيث يعملون في المستعمرات الاسبانية القديمة وكذلك البرتغالية والانكليزية والفرنسية .

وعلى عكس ما رأينا ، فان جمهورية ليبيريا قد أسسها جماعة قديمة من الرقيق المتحررين عام ١٨٤٧ . وقد جاء هؤلاء الرقيق من الولايات المتحدة الأمريكية حيث تعلموا من هناك فن البناء والتعمير . أما سكان ليبيريا الأصليين من سود وُمولدين من اصل أمريكي فانهم يشغلون المناطق المجاورة للعاصمة مونروفيا ، كما يمارسون اشرافاً محدوداً على بعض المناطق التي اعترف بها لهم في معاهدات مع فرنسا وانكلترا . أما جنوب ليبيريا فهناك الغابة وما يحيط بها من مناطق تقطنها جماعات من السكان الذين وصل بعضهم الى مراكز سياسية مرموقة ، بينما نرى البعض الآخر وقد بقي في مستوى القرية او المقاطعة .

وهناك ايضاً قبائل الباولي *Baoulé* الذين يبلغ عددهم (٤٠٠) الف ينتشرون على الحدود الأولية لمنطقة المروج الواسعة التي تقطع كتلة الغابات في شاطيء العاج عند خط الطول في منطقة البواكي *Bouaké* . وتقول احدى الأساطير بأن هذه القبائل قد أتت من الشرق تحت زعامة ملكة قوية . بينما دخل جيرانهم الشرقيون (الآغني *Agni*) في وسط الغابة . ويتكلم هذان الشعبان (الآغني والباولي) لغة مشتركة ، كما ان حضارتهم تتقارب مع حضارة قبائل (آشانتي *Achanti*) في شاطيء الذهب .

ولقد ظهرت مملكة آشانتي مع عاصمتها كوماسي في اوائل القرن الثامن عشر . والذي نلاحظه هو ان بمالك الباولي والآغني والآشانتي تشتهر بصناعاتها الفنية الدقيقة ، بحيث نرى المتاحف اليوم تغص بالأمثلة والتماثيل الخشبية الصغيرة التي ترد من تلك البلاد ، وكذلك الاوزان الصغيرة التي تستخدم في وزن مسحوق

الذهب ، وأدوات الزينة الذهبية المتعددة إلا ان أجملها هي التي تمثل الاقنعة الصغيرة .

والى الشمال نرى بلاد الموسى *Mossi* وهي عبارة عن مناطق يحيط بها نهر الفولتا الاسود والأبيض وتضم هذه البلاد مملكتين: الاولى وهي مملكة اوغادوغو *Ougadougou* والثانية مملكة ياتانغا *Yatenga* ، بحيث يعود زمن تأسيسها الى الى اوائل القرن الحادي عشر . وكل مملكة منها تضم عدة مقاطعات خاصة لها يديرها اقرباء الملك الذي يترك لهم كل الحرية في الادارة ولا يطلب منهم الا دفع ضريبة سنوية معينة وبعض النجيدات العسكرية في المناسبات . وبلاد الموسى بمملكتيها قد حافظت على مؤسساتها وعاداتها حتى جاء الاستعمار اليها وسبب محافظتها هذه هو أنها كانت تظهر عداءها الشديد لكل التأثيرات الخارجية وخاصة فيما يتعلق بالنفوذ الاسلامي .

ولقد بقي تاريخها غامضاً بعض الشيء ، وبينما نرى مملكة (أوغادوغو) بعيدة عن كل الحوادث التي مرت في السودان الغربي ، نرى العكس بالنسبة لمملكة (ياتانغا) التي حشرت نفسها في الأحداث التي قررت مصير مملكتي ماندينج والسونجبي .

اما مملكة فادا - ن - غورما *Fada-N-gourma* المجاورة فقد تأسست على نفس الاسس : بحيث كانت مقسمة الى (١٨) ولاية واحدة منها كلها تعود الى الملك مباشرة . ولقد قاومت هذه المملكة زمناً طويلاً .

وفي الاقسام الشمالية والشرقية نشاهد كثيراً من الممرات التي تجتاز افريقيا وتنفذ الى نهر النيجر او رافده (بينوي *Benoué*) حتى تصل الى أقصى خليج غينيا . وان كل ما كان يجلب من الخارج قد جاء عن طريق تلك المناطق حيث تبلغ فيها الحضارة الافريقية ذروتها .

أما مملكة داهومي التي ضمتها فرنسا اليها عام ١٨٩٤ ، فقد تأسست في أوائل القرن السابع عشر واتخذت مدينة (آبومي) عاصمة لها . ولقد عرف حكام هذه المملكة كيف يسهرون على مملكتهم ويديرون شئونها . ونرى عادات الدفن عند ملوك داهومي هي نفسها عند جيرانهم ملوك بينان *Bénin* ، كما تذكرنا في نفس الوقت بعادات حكام غانا .

وفيما بين داهومي ومصبات نهر النيجر نرى مقاطعة واسعة ومسطحة تحيطها المستنقعات ويسكنها أربع ملايين من السكان ، تضم قبائل اليوروبا *Yorouba* دخل قسم منها في الدين الاسلامي ، وقبائل البينان ، والنوبي *Noupé* والايبو *Ibo* . كما ان بعض هؤلاء السكان يدعون بأن اصلهم شرقي ، كما نجد بعض الآثار الغربية تظهر بشكل واضح ، كما يمكن ان تكون هناك عناصر دخلت بواسطة الاسلام .

ويبدو التنظيم في المدن واضحاً وجلياً ، فالحكومة تتبع نظام الطبقة المعقد كما توجد جمعيات بعضها سري وتمارس كلها نشاطاً بارزاً في الحقلين الديني والسياسي .

وفي أوائل القرن الخامس عشر تقريباً نرى قبائل البينان تأسس دولة قوية اشتهرت بفن صناعة البرونز الذي يبدو بأنها قد ورثتها من جيرانها الايفي *Ifé* ، كما اشتهرت بصناعة العاج ولها في هذا الميدان أعمال رائعة . ولقد انتشرت صناعة البرونز من الداهومي وشاطئ الذهب حتى جنوب الكاميرون وشملت بلاد هاموم *Hamoum* .

أفريقيا الكونغولية والجنوبية

تسير الحدود بين أفريقيا السودانية والكونغولية مع خط يمر قريباً من شمال

خط الاستواء ثم يتجه نحو الجنوب حتى يصل الى المحيط الهندي . واكثر
أفريقيا الكونغولية مغطى بغابات كثيفة وتسير فيها مجار مائية عديدة صعبة
الاجتياز في فصل الامطار . كما تظهر هذه البلاد أقل ملاءمة من المروج السودانية
فيما يختص بالرحلات الطويلة والعلاقات التجارية والسياسية . ولقد ظهر منذ
مجيء البحارة البرتغاليين الأول في نهاية القرن الخامس عشر ، أن تلك المنطقة
كانت تحوي عدة ممالك . كمملكة لوانغو *Loango* التي تقع بين (بور جانتيل)
ومصب نهر الكونغو أو (الزاير *Zaire*) كما كان يطلق عليه سابقاً . وتشبه
مملكة غانا أو إحدى ممالك الموسي *Mossi* ، اذ تشكل دولة ذات سيادة ودول
أخرى تابعة لها يسكنها أجداد قبائل (الفيو *Fiot*) والباوالي . وفي أواخر
القرن الخامس عشر خضعت مملكة (لوانغو) كما يظهر لحاكم الكونغو أو
(الماني كونغو) *Mani-congo* الذي كانت تمتد سلطته من (سيني كاما) في
الشمال الى أعالي نهر (الزامبيز) في الجنوب الشرقي . ولقد بدأت هذه المملكة
تضعف وتتجزأ ، كما ان ضعف أمرائها قد حث أتباعها من الممالك الصغيرة
الأخرى على الانفصال عنها وطلب الاستقلال . وما أن جاء القرن التاسع عشر
حتى أصبحت مملكة (الماني كونغو) لا تضم الا منطقة صغيرة جداً .
وفي الشرق من لوانغو والشمال الشرقي من الكونغو كانت توجد هناك مملكة
آنسيكا *Ansika* ، التي تسكنها قبائل (الباتيكي) (والبيكا) . كما تمتد في
جنوب مملكة الكونغو وعلى طول ساحل المحيط بمملكة (ندوجو *Ndongo*)
التي يحمل حاكمها لقب (نجولا *Ngola*) ومنه أخذ البرتغاليون اسم (انغولا
Angola) . واننا لا نملك أية معلومات عن هذه المملكة قبل مجيء الأوروبيين
اليها .

وعلى كل حال فالتحريات الجديدة عن الناحية البشرية والآثار القديمة تسمح
لنا بالاعتقاد بأن داخل أفريقيا من انغولا الى قنال موزامبيك قد عرف حضارة
واحدة تقريباً: فالتقاليد الاصلية غير واضحة تماماً ولكنها تفيدنا على الاقل بأنه
خارج ممالك لوانغو والكونغو، كانت هناك ممالك قوية ولها حكام من أصل واحد.

وعندما اجتاز البرتغاليون رأس الرجاء الصالح سمعوا عن وجود مملكة مونوموتابا *Monomotapa* . التي كانت مسيطرة كما وصلتهم الأخبار عن المنطقة الواقعة بين نهر الزامبيز ، حتى منطقة الكاب .

إلا ان الواقع يثبت أن حدود تلك المملكة غير مستقرة حسب العصور والحكام . وبالفعل فقد قام البرتغاليون باتصالات مع المونوموتابا بغية استثمار مناجم الذهب عندهم بيد ان محاولتهم لم تثمر شيئاً . تماماً كما حاول سليمان من قبل استثمار ذهب أوفير *Ophir* التي توجد في روديسيا كما يقول البعض ، وأوفير هذه ذكرت في الكتاب المقدس .

كما ان الخرائب التي اكتشفت في هذه المنطقة وخاصة في (زمبابوي) قد أثارت حب الاستطلاع عند الكثيرين منذ اكتشافها عام ١٨٦٧ . وأهم ما في تلك الآثار المعبد الاهليلجي الذي بنيت جدرانه من الحجارة المحكة ، وحيث يبلغ عرضها ما بين اربعة أو خمسة أمتار ؛ ومن تلك الآثار برج يبلغ ارتفاعه اثني عشر متراً . كما ان الابحاث التي تمت باعتناء قد كشفت عن وجود قطع فخارية وخزفية كالتي توجد اليوم ، وبمجموعة من الآلات الزجاجية ذات اللون الأزرق وبعض قطع من الخزف الصيني . وقد تم بناء هذا المعبد على ايدي السود بين القرن السادس والقرن الخامس عشر في مكان يقع قرب مناجم الذهب التي استثمرت منذ أمد طويل .

كما ان معدن الذهب قد جذب الى الساحل التجار العرب الذين كانوا يقدمون مقابل الذهب أدوات الزينة من فارس والهند وماليزيا . والحقيقة ان وجود الشبه بين الأبنية والأبراج في انغولا وبين أبنية وابراج روديسيا ، يؤكد وجود منطلق ثقافي واحد لمجموعة واحدة تمتد من انغولا الى موزامبيق .

كما ان داخل افريقيا الذي ينضم الى تلك المجموعة الثقافية قد تحمل كثيراً من التأثيرات الخارجية ، وقامت فيه عدة ممالك تضم السكان الاصليين . وقد

ازدهرت تلك الممالك فترة طويلة من الزمن . ونذكر من الممالك التي تأتي بعد مونوموباتا ، مملكة (الباروسقي *Barosté*) في منطقة نهر زامبيز الوسطى ، وكذلك مملكة لوندا *Lundâ* ، فوق مضاب كاساي وزامبيز المرتفعة ، ومملكة كاتانغا في المنطقة الجبلية عند منبع الكونغو . كما نجد في شمال غربي (تانغانيكا) مملكة الأورو *uru* او البالوبا، وهم اقرباء البالوندا *Balond* والمانياما *manyema* . ونرى ايضاً في شرقي البحيرة مملكة الأوناموازي مع تابعاتها اورندي ورواندا، وأخيراً تأتي مملكة الأوغاندا وتابعتها مملكة اليونيورو *Unyoro* ، في شمال بحيرة فيكتوريا .

ان كل الممالك التي ذكرناها تخضع لمبدأ واحد من التنظيم وهو وجود مجلس وزراء يرأسه الملك . كما ان مملكة الكونغو كانت مقسمة الى أربع مقاطعات تقع في أربعة أماكن مرتفعة ويحكمها أربع أمراء هم اولاد اخت الملك الذين يحيطون بالحاكم . أما ام الملك واختها فقد كانتا تلعبان دوراً سياسياً هاماً . اذ كان لكل واحدة منها عاصمتها وحاشيتها وحكومتها . أما الاميرات من الحاشية الملكية فكن يختزن زوجاً لوقت قصير بحيث يهجرنه عندما لا يعجبهن ، او يقتلنه في بعض الأحيان . أما الملك فكان اسماً صاحب السلطة العليا .

ولقد عرف قسم من هذه الممالك بعض المنازعات في القرن التاسع عشر ؛ وكان سببها التزاخم بين الكاثوليك والبروتستانت . ونذكر هنا بأن مملكة اوغندا قد كانت ايام حكم نقيسا *Ntessa* الكاثوليكي مسرحاً لحروب دينية دامية، بحيث امتدت الى ايام حكم خليفته موانغا *Muanga* ولم تنته الا بعد ان اعتنق موانغا المذهب البروتستانتي . ولئن اختلفت الاسباب فالنتائج شبيهة بالتي خلفها الاسلام في افريقيا الشمالية والسودان الاوسط . اي تعددت الاسباب والموت واحد بالنسبة لافريقيا . وانه خلافاً لبعض الدلائل ، فان مقاييس تطور الممالك الافريقية التي نجعل تقريباً تاريخها ونشوءها وتوسعها المفاجيء او انهيارها السريع ،

هذه المقاييس توجد واضحة في سياق الحوادث التي شهدتها افريقيا في القرن الماضي .

ففي النصف الاول للقرن التاسع عشر تأسست مملكة قوية ثم اخذت تتوسع بتحريض من احد الرجال وبالتجمع الإرادي او القسري للمجموعات الصغيرة التي كانت حتى ذلك الوقت تعيش منعزلة .

وحوالي عام ١٧٨٧ ولد طفل في قبائل الزولو واسمه (شاكا *Chaka*) . ونظراً لطفولته المعذبة فقد بحث عن ملجأ له عند أحد الزعماء المجاورين، وحدث ان تبناه ذلك الزعيم جاعلاً منه وريثاً له . وعندما استلم شاكا السلطة خلق بين رعاياه نظاماً عسكرياً مبنياً على اساس التنظيم الاجتماعي الذي كان سائداً ، اي بحسب القبيلة وترتيب العمر . ولقد قسم جيشه الى فرق بحسب المناطق وجهزه بتدريب جديد . ثم بدأ يستولي على الشعوب المجاورة له بحيث كان يجبر المغلوبين على دخول جيشه وتعلم لغة الزولو . ونستطيع التقدير بأنه حوالي عام ١٨٢٠ كان تحت امره شاكا مئة الف محارب . ويحكم على اكثر من نصف مليون انسان .

ولقد كان اعوانه العسكريون المحربون يحيطون به ، كما انهم هم الذين قادوا الحملات التي تحمل الدمار والموت ضد قبائل التونغوا *Thonga* والمازونا *Mashona* وبعض قبائل (النياسا *Nyassa*) وفي الجنوب الغربي من افريقيا . ولقد قتل في جميع هذه الحملات اكثر من مليون شخص تقريباً . ولكن الانكليز الذين تمركزوا في الناتال *Natal* وكذلك قبائل البوير في الترانسفال قد غضبوا كثيراً للأعمال التي قام بها (الزولو) ولذلك ارسلوا ضدهم حملات عديدة . وفي عام ١٨٧٩ اصبح الناتال مهدداً من جديد من قبل (كيتيوايو *Cittiwayo*) زعيم الزولو الجديد ؛ ولقد استطاع اخيراً ان ينتصر على قبائل الزولو ولكن بعد معركة قاسية جداً .

القسم الثاني

الفصل الأول

المجتمعات

ان تعيين الحدود للمناطق الحضارية في أفريقيا بشكل واضح هو عمل صعب لان الحوادث التي جئنا على ذكرها سابقاً — لا تجعل هذا الأمر سهلاً كما نتصور.

ففقدان الأمن وعمليات النهب والتدمير قد اجبرت بعض المجتمعات الصغيرة على الانطواء والانعزال بعيداً عن كل شيء . كما ان هناك مجتمعات أبيدت عن آخرها وان من بقي من احفادها ذاب في مجتمعات أخرى بحيث استطاعت ان تحتفظ ببعض تراث ماضيها البعيد . كما ان بعض المتخصصين بدراسة تاريخ الجماعات البشرية قد توصلوا الى وجود بعض العناصر الحضارية .

هذا كما ان طريقة الحياة في المجتمع والتكوين الاقتصادي يعودان في جزء كبير منها الى وضع المنطقة من الناحية الجغرافية والى توزيع النباتات والحيوانات الالهية ، كما ان خارطة المناطق الطبيعية ضرورية بعض الشيء ان لم تكن كافية تماماً لفهم توزيع الجماعات البشرية . ومن الواضح أن البدو الرحل اصحاب الجبال يستطيعون وحدهم المقاومة في جو الصحراء خارج الواحات ، بيد ان الغابة تبقى دائماً محظورة على الماشية التي تسير الحياة المادية كلها وكذلك

الحياة الاجتماعية عند سكان أفريقيا الشرقية .

١ - هناك صحراء كالا هاري *Kalahari* التي يسكنها البوشيان الذين هم آخر من يمثل اليوم أقدم سلالة من البشر عرفتها أفريقيا. كما ان شروطاً حياتية قاسية قد فرضت هناك على شعب قديم لا يجد مورده الاساسي الا في الجري وراء الطريدة التي يعتبر وجودها نادراً .

٢ - وهناك قبائل (الهوانتوس) التي ربما جاءت من اجتماع قبائل البوشيان مع بعض السود ؛ وهذه القبائل تنتقل من مرعى الى آخر في جميع انحاء الجنوب الغربي من افريقيا . أما متاعهم فسهل ولا يكلفهم كبير عناء ؛ فهناك الثيران التي تستعمل للحمل وقرب الماء التي تصنع من معدة الحيوان وكذلك الكوخ الذي يبنى من الأغصان والذي لا يكلف نقله صعوبة . أما اعمالهم الفنية التي تتعلق بالصيد وحاجاته فانها تذكرنا باعمال البوشيان .

٣ - هناك مميزات بشرية وسلالية تتوافق بحيث تجعلنا نرى عند قبائل الأقزام الذين يعيشون في الغابة الاستوائية كسلالة مميزة ، حضارة بارزة ، بحيث تبقى عملية الصيد وما تحتاجه من اختصاص الرجال وحدهم أما اعمال اللقاط والجمع فهي من اختصاص النساء .

٤ - أما أفريقيا الشرقية فهي مركز مهم لكبار مربي الماشية والقطعان ايضاً . كما ان الاهتمام بتربية المواشي يسيطر على جميع مرافق الحياة المادية والاجتماعية والدينية . أما الأعمال الزراعية ، فهي ، ان وجدت ، تقوم على اكتاف بعض السكان القدماء الذين جاؤوا الى هذه البلاد ثم تحولوا الى رقيق فيها . وفيما يتعلق باللغات المنتشرة هناك فانتا نراها تخص مجموعتين من السكان : النيانزا وهي مجموعة من السكان الفيليبين في شمال بحيرة فيكتوريا ، والبانغو وهي المجموعة الثانية في الجنوب .

٥ - أما في المناطق الافريقية التي تمتد في جنوب نهر زامبيز فان تربية الماشية

تزداد شيئاً فشيئاً أكثر من الزراعة وحيث النساء يلعبن دوراً كبيراً، بينما نرى الرجال يذهبون للعمل في المناجم والمراكز الصناعية التي تقع خارج حدودهم بينما نرى السكان الأصليين منعزلين عن كل ذلك . أما الزراعة فيمارسونها بواسطة المحرفة *La houe* ، وان أهم المحاصيل الزراعية هي الذرة البيضاء والذرة الصفراء والقرع .

٦ - إن السود الذين يسكنون الغابة الاستوائية هم أيضاً من المزارعين ولكنهم لا يعرفون جمع محاصيلهم في اوقات محددة بسبب المناخ عندهم . وكذلك فهم يلجأون الى قلع بعض ادران النباتات من الأرض وقت الحاجة ، وهكذا فان الأرض هي مستودع لهم يخرجون من باطنها غذاءهم متى شاؤوا ذلك . أما الماشية فقير موجودة لأن ذبابة تسي - تسي تمنع وجودها هناك ؛ واما منازلهم فهي مصنوعة من قشور النباتات وكذلك ثيابهم فقد كانت تصنع قديماً من تلك القشور . هذا وان مصادر الثروة عندهم في الغابة مستثمرة الى آخر حد بيد ان تزايد النباتات الكثير قد يكون في بعض الأحيان عاملاً من عوامل الاختناق .

٧ - تضم منطقة أفريقيا الغربية الواسعة سكاناً من غابة غينيا وهم جماعة محافظة وتؤمن بقوانينها الخاصة . كما تضم تلك المنطقة قبائل سودانية مسلحة ، بالإضافة الى بعض السود الذين يعيشون شبه عراة ولهم تنظيمهم السياسي الذي لا يتعدى حدود النظرة العائلية . كما تضم أيضاً احفاد زعماء السودان البارزين وبعض الممالك الغينية *Guinéenne* . والذي يطبع كل الجماعات التي ذكرناها هو الارتباط بالأرض التي تقدم لهم الخيرات ويحمل هذا الارتباط طابعاً دينياً ، كما نجد أيضاً عبادة الاجداد في جميع انحاء هذه المنطقة . وهكذا فالارتباط الديني بالأرض وعبادة الأجداد يطبعان هذه البلاد بطابع حضاري واحد .

٨ - هناك الصحراء أيضاً موطن مربي الجمال ، حيث الشروط الطبيعية تفرض عليهم نوعاً واحداً من الحياة . كما انه من الناحية البشرية أو اللغوية أو

السلالية لا نستطيع ان نميز بين قبائل التواريج وبين قبائل (التيدا) في تيبستي *Tibesti* ، ولا بين قبائل (المورس) في التاجانت وبين عرب الواحات .

٩ - ويبقى السودان الشرقي الذي دخلته مدنيات سامية واسلامية والذي يسكنه اليوم رعاة يملكون الثيران والاغنام والماعز والخيول وكذلك الجمل في بعض الأحيان . كما ان قبائل (الكبابيش *Kababish*) تمثل مرحلة انتقالية بين مدنية الصحراء الحقيقية وبين مدنية مربي المواشي النيليين *Nilotiques* .

١٠ - واخيراً تأتي افريقيا الشمالية التي يسكنها بعض الحاميين *Kamites* وكذلك الليبيون او البرابرة .

ولقد دخلت تلك البلاد مدنيات فينيقية ومصرية ويونانية ورومانية وعربية وانتشرت فيها بصورة متتابة او مزدوجة في بعض الاحيان . ولقد رأينا كيف ان عدة عناصر حضارية في افريقيا الشمالية استطاعت ان تتوغل في افريقيا عبر الصحراء الى السودان والى داخل خليج غينيا .

١ - البوشيمان *Les Bochimans*

اذا كان البوشيمان لا يمثلون السكان الاصليين فهم على الاقل اقدم جماعة ظهرت في افريقيا الجنوبية ، فمنذ عدة قرون خلت كانوا يشغلون المنطقة التي تقع جنوب نهر الزامبيز ، ولكن احفادهم الذين جاؤوا بعدهم قد تراجعوا وأصبحوا اليوم يتنقلون في صحراء كالاهاري فقط ، حيث لا يوجد هناك سهل خصب ولا مروج تجذب اليها المزارعين .

وان هذا الشعب الذي لوحق في كل مكان قد رأى الطريدة تختفي من حوله بحيث قضت عليها الاسلحة النارية بعد ان كانت تشكل غذاءه الاساسي . ولا يزيد عدد البوشيمان على (٧٥٠٠) فرد وان اكثرهم قد لجأ الى السهول المستنقعية

المليئة بالبحيرات المائية في الجنوب الغربي من افريقيا ومن انغولا . أما البعض الآخر فقد دخل بلاد انغولا من الجنوب . ورغم تأثير جيرانهم من قبائل الهوتانتوس وبعض السود ، فلا يزال هناك بعض آثار من مدنية البوشيان الصحيحة ، تلك المدنية التي تتميز برسومها المنقوشة على جوانب الملاجئ الصخرية بواسطة فحم الحشب أو التراب الأحمر (المغره) أو دهن الحيوان المزوج بالماء . وتصور هذه الرسوم بعض مشاهد الصيد وبعض مشاهد الرقص التي ترمي الى سحر الطريدة بحيث ترى بعض الراقصين يقلدون حركاتها . كما ترى في بعض الأحيان لوحات تمثل القتال بين البوشيان والسود ، وكذلك تؤكد بعض الرسوم القديمة وجود الحيوانات مثل الحمار الوحشي والجاموس والفيل والوعل وكل واحد من هؤلاء له منطقة خاصة وموسم خاص لصيد .

هذا وان ملاحقة الطريدة والبحث عن مواضع المياه النادرة يقضيان بوجود حياة دائمة الترحال والتنقل ، وأينا وجدوا يقيمون اكواخهم المصنوعة من قشور الأشجار والمغطاة بأغصانها . فلا زراعة لديهم ولا تربية مواشي ، وان الكلب هو الحيوان الاهلي الوحيد . الا ان وسائل الصيد وصناعتها كانت متقدمة للغاية . ومن الرسوم الصخرية رسم يمثل صياداً مسلحاً بقوس ولا بساً جلد النعامة بحيث يتمكن من ان يقترب من الحيوانات وهذه الحيلة لا تزال موجودة عند بعض الشعوب الافريقية . اما القوس الذي يصنعه البوشيان فيتميز بالقصر كما ان خشبه على شكل مقطع دائري اما الوتر فيصنع من خيوط عضلات الحيوانات . وبما انه لا يوجد من يعمل بالحداة ، فقد كان الصيادون مضطرين لجلب الرؤوس الحديدية الصغيرة من جيرانهم والتي يضعونها في طرف قناة من القصب بحيث يمكن انتزاعها بسهولة . وفي حالة عدم وجود الحديد فانهم يستخدمون رؤوساً من الحجارة او العظام . اما السهام فهي مسممة بواسطة مزيج من (الفرييون *Euphorbe*) او لبن السوداء ومن سم الافعى ومن الرتيلاء المطحونة وعندما تجرح الطريدة ولا تسقط يضطر الرجل الى اللحاق بها كي ينتزع من جرحها الرأس الحديدي الثمين ويضعه في قناة أخرى . وأخيراً فالبوشيان لا يستعملون الفخاخ التي يستعملها

بقية السود في افريقيا .

لقد دخل الصيد حياتهم كلها اذ لا شاغل لهم الا هو فقط . ولذلك فالصبي منهم قبل ان يبلغ سن الرشد عليه ان يستعد لتحمل بعض الجروح في ظهره وذراعيه ، ثم تفرك تلك الجروح باللحم المحروق ، وبهذه العملية يكتسب الفتى قوة ورشاقة الطريدة في حالة تحمله لها (أي لهذه العملية) . ثم يقومون بفتح بعض الجروح بين عينيهِ لكي يصبح نظره نافذاً وقوياً .

كما نذكر هنا بأن النساء المكلفات بأعمال اللقاط والجمع من الأرض قد ازدادت مسؤولياتهن اثر النقصان الشديد للطرائد ، أما الآلات التي تستخدمها النساء فهي تنحصر في آلة على شكل عصا طويلة مثقلة بحلقة من الحجر وذات طرف مدبب صلب وأحياناً يوضع فيه قرن حيوان . كما تقوم النساء بجمع أدران النباتات من الأرض وجمع الأعفاسي ودود الخشب والجراد والديدان الأرضية . أما الأدوات الفخارية او الخزفية فغير موجودة ، ولذلك فهم يمتصون الماء بواسطة قصبه توضع في فوهتها بعض الأعشاب لتصفى مياه المستنقات ، وبعد عملية الامتصاص يوضع الماء في بيض النعامة او في قرب جلدية صغيرة . أما ملابسهم فهي عبارة عن جلد حيوان يضعونه حول خواصرهم ويمر من بين الساقين مع جلد آخر يغطي الكتفين . واما الحلي التي يستعملونها فثمينة وهي عبارة عن حلقات مصقولة من قشر بيض النعام ومتراصة بدقة على شكل تاج او اكليل . كما نجد من الحلي الخرز والحلقات النحاسية التي يحصلون عليها من جيرانهم السود . ونضيف الى ذلك أصداف السلاحف الصغيرة او قرون الوعل التي تحتوي على مرهم له قيمة سحرية ، لأن الحلي هي نوع من الطلسم قبل كل شيء .

ويقسم البوشيان الى وحدات سياسية واجتماعية وكل وحدة يقودها أمير واحد فيها ، ويبلغ عدد أفرادها / ٥٠ / رجلاً ونادراً ما تكون اكثر ، وذلك

لنستطيع هذه الوحدة ان تنقسم بسرعة في حالة ملاحقة الطريدة . أما في الشمال فنجد الى جانب الزعيم المنتخب للصيد ، زعيماً آخر كخليفة له يوجه المجموعة كلها . وكذلك فحدود المنطقة التي يمكن للقبيلة الواحدة ان تصطاد فيها وان ترتوي من مياهها وتجمع انتاج نباتاتها ، هذه الحدود تكون معينة بواسطة شجرة مثلاً او حفرة ماء او بخط من الكشبان الرملية . ونذكر هنا بأن اكثر الاصطدامات التي تقع بين القبائل ، سببها خرق تلك الحدود . أما المجموعة الثابتة والتي لا تتغير فهي العائلة التي تتكون من الزوج والزوجة والاولاد الصغار . بيد أننا نجعل تحديد القرابة ودرجاتها عند البوشيان . فالرجال كما يبدو هم بصورة عامة اقرباء الزعيم ، وكذلك فالمرأة مجبرة على الاقامة بقرب زوجها . وفي قبيلة (نارون *Naron*) نرى الرجل يقضي السنة الاولى من زواجه عند عائلة زوجته وتفسير ذلك هو أنه بإمكان والدته الزوجة (الحماة) ان تعتني بالمولود الجديد . وأخيراً نقول بأن قساوة المناخ وظروف العيش بالاضافة الى اختفاء الطرائد من المنطقة قد أجبر احفاد البوشيان على اتباع نظام نباتي معرض للزوال . والى جانب هذا فقد انتشرت بينهم عادة قتل الأطفال . ان كل ما ذكرناه مضاف اليه عدم استعدادهم لتبني حياة جديدة اخرى ، يجعل البوشيان مهددين بانقراض قريب .

٢ - الهوتانتوس *Les Hottentots*

تظهر القرابة بين الهوتانتوس والبوشيان في السلالة واللغة اكثر منها في الحضارة المادية . ونستطيع ان نقسم الهوتانتوس بحسب اللغة الى أربع مجموعات رئيسية : الناما ، الكورانا ، والغونا *Gona* ، والهوتانتوس القدماء في الكاب الذين اختفت معالمهم اليوم ، اذ اندمج احفادهم بالاوروبيين والهندوكيين وشكلوا قبائل الغريكا *Griqua* والباستاردز *Bastards* في (رهبوت *Rehoboth*) .

وقبائل الهوتانتوس بصورة عامة رعاة يتبعون ماشيتهم من مرعى الى آخر

بيد ان النساء هي التي تٌحلب الماشية وهذا مالا يتصوره مربو الحيوانات في افريقيا الشرقية . أما الثيران فتستعمل لاركوب أيضاً . ويبدو ان الماشية التي كانوا يربونها هي من النوع الكبير القامة وذات ظهر مستقيم وقرونها طويلة بحيث نجد بعضها اليوم في أفريقيا الشرقية . ولكن اختلاط تلك الحيوانات بالتي حملها معهم المزارعون الهولنديون قد غير شكلها القديم . أما غذاء الهوتانتوس فيتكون من الحليب الذي يشرب رائباً بالاضافة الى بعض الحبوب وجذور النباتات . أما اللحم فلا يأكلونه الا في أيام الأعياد فقط . كما ان الماشية تنام في حظائر محاطة بسياج من الشوك وتقع وسط منازلهم . الا ان أكوأهم أرقى من أكوأخ البوشيان اذ تتألف من أغصان كبيرة منحنية تشترك النساء بتغطيتها بنوع من الحصر المجدولة ، وأما أرضها فتطلى بروث البقر وبالدم .

ولقد كان تنظيمهم الاجتماعي الذي اختفى اليوم ، معقداً اكثر من تنظيم البوشيان بيد أنه أقل تعقيداً من تنظيم شعوب أفريقيا الشرقية . فقد كان لكل قبيلة زعيماً ومنطقة محددة ، ومواضع مياه معينة . كما تضم القبيلة عدة عشائر (باتريلينير *Patrilinéaire*) وعشائر تزوج أفرادها من عشائر اخرى ، بحيث كل عشيرة تحمل اسم الجد الاول لها . كما ان الحكم الطبقي الصارم المبني حسب الأعمار هو الذي يوجه العلاقات الاجتماعية داخل العشيرة ، أما القبيلة كلها فلها زعيم واحد ، هو زعيم اقدم عشيرة فيها .

ويؤمن الهوتانتوس بتعدد الزوجات ، وان المرأة تعيش عادة بين عائلة زوجها من ناحية أبيه . وينحصر عملها بالاشراف على بيتها وبتحضير الحليب الذي حلبته . كما ان عادة ادخال الأولاد والبنات في العائلة كان يطبق بصورة افرادية ، الا أن عملية ادخال الاولاد فقط قد فقدت كثيراً من أهميتها منذ فقدان الطرائد الكبيرة ، ومن عاداتهم أن تبقى البنت معزولة فترة من الزمن ، أما الطقوس التي تتعلق بسن البلوغ فانها تتم عند حدوث النمو في الاعضاء الجنسية الخارجية ، وعندما تدخل الفتاة الحياة الاجتماعية نراها تبدأ بممارسة أعمالها اليومية تحت

أشراف امرأة متقدمة في السن فتدريها على جمع الأخشاب وقطف بعض الجيوب، كما تمسك بذراعها طيلة مدة حلب الماشية، ثم تقوم أخيراً برشها بالماء وفركها بالوحل، والماء هنا ذو قيمة تطهيرية كبيرة.

وعند حدوث الوفاة يلف الجسد بالجلود ثم تدفن الجثة وهي في حالة الجلوس ووجهها إلى الشرق. أما كوخ الميت فلا يدخله أحد بعد ذلك كما تغادر العشيرة مكان إقامتها. ثم يفرضون على الأرملة أو الأرملة أن تمتنع فترة من الزمن عن الاقتراب من الماشية وعن لمس أوعية الحليب وعن أكل اللحوم النيئة وعن شرب الماء البارد، كما أن لمسها يوسخ الماشية، وهكذا ينتهي زمن الحداد بهذه العملية، وعند انتهائه يختم بعملية تطهير تتبعها وليمة كبيرة يستطيع بعدها ذلك الأرملة أو الأرملة الاندماج بالحياة اليومية المعتادة. ونذكر بأن طبيعة البلاد القاسية وعدم وجود الماء الكافي للماشية في سهول أفريقيا المليئة بالسبخات، حمل قبائل الهوتانتوس على الاهتمام بمثل هذه الأمور، وهكذا فقد أصبح على الطبيب – الساحر *medecin-magicien* أن لا يغتسل بالماء أبداً لأن قوته ستزول بزوال الأوساخ عن جسده. كما أن بعض الحكيمات – الساحرات يمكن لقوامهن أن تزول بتغطيس أجسادهن في الماء البارد.

ونرى عند قبيلة (الناما *Nama*) كيف يجتمع كل أفرادها أثناء الاحتفال السنوي بالأمطار. ثم يضحون بعد ذلك بالأغنام السمينة في سبيل الخصب وازدياد الأمطار. وفي بعض القبائل الأخرى نرى البنات البالغات يركضن عاريات تماماً عند أول العاصفة وتحت المطر الذي يغسل أجسادهن ويؤمن لهن أطفالاً كثيرين في المستقبل.

لقد عرف الهوتانتوس إلهاً سماوياً واحداً هو (تزوي غواب *Tsui Goab*)، الذي يسير العاصفة والأمطار الغزيرة. كما أن صفات السلف الأول للهوتانتوس تنسب إلى شخص عظيم تتحدث عنه الأساطير الدينية ويدعى (هيتسي أبيب)

Heitsi Eibibé ، الذي تعرفه قبائل البوشيان أيضاً وتعتبره الروح التي تسيطر على المروج وتحمي الصيادين . وقد كانوا يقدمون باسمه الضحايا بقرب اكوام من الحجارة تنتشر في جميع البلاد التي يسكنونها والتي ترمز الى قبره ، اي انه مدفون في كل مكان ، والآن ورغم وجود الشبه الكبير بين البوشيان والهوتانتوس فانه لا مجال للالتباس بينهما .

لقد كان الهوتانتوس يتنقلون من مكان الى آخر بحثاً عن المرعى ؛ كما ان الانتفاع من المنتوجات الحيوانية كان يطبع حياتهم المادية ، مع العلم بأنهم لا يقتلون الحيوان ابداً الا في حالات تقديم الضحية . وتشترك الماشية ايضاً في جميع احداثهم الهامة ، فنرى مثلاً أن بعض الافراد الذين جرى ابعادهم لفترة معينة عن الجماعة ، كالشباب اثناء فترة الحداد ، هؤلاء لا يمكن ان يقتربوا من الجماعة لأنهم سيدنسون انفسهم قبل كل شيء ويدنسون بالتالي الماشية والجماعة بأكملها .

٣ - الاقزام - *Pygmées*

خلافاً لما نعرفه عن البوشيان فان الاقزام في الغابة الاستوائية يعيشون على اتصال ضيق مع جيرانهم السود الذين يقدمون لهم اللحوم ويأخذون مقابلها الموز وزيت الاراشيد *Arachides* ... الخ . كما نجد أن كل جماعة من الاقزام يحميها زعيم اسود ، ويلتقل عبء الحماية من بعده الى ولده .

كما نرى الاقزام يقلدون جيرانهم المجاورين لهم بحيث يحصلون على اشياء كثيرة منهم الى جانب التنظيمات الاجتماعية والحتات أيضاً . ومن هنا يصعب علينا عزل مدنية الاقزام بحيث لا نرى منها عناصر صافية ابداً . اما لغتهم فهي لغة اسيادهم السود كما ان البعض منهم قد استطاع ان يحافظ على لغة خاصة به الا انها لا تحمل سيزات واضحة . ويمكننا تقسيم قبائل الاقزام الى ثلاث مجموعات :

١ - الاقزام الشرقيون او البامبوتي *Bambouti* (اي رجال الغابة) وهم الآكا ، الايفي *Ejé* والبازوا *Basu* .

٢ - اقزام المنطقة الوسطى وهم جماعة الباكا *Bacwa* ، ويسكنون منطقة الانهار التي ترقد ضفة نهر الكونغو اليسرى ، وجماعة البابينغا *Babinga* التي تسكن منطقة الاوبانجي والسانغا *Sanga* .

٣ - الاقزام الغربيون ويسكنون منطقة الغابون *gabon* وهم جماعة الآكوا *Akoa* ، والبابونجو *Babongo* والبيكوي *Bekwi* . وقسم آخر يسكن منطقة الكامبيرون وهم الباكا ، والباجيلي .

ويبلغ عدد الاقزام كلهم مع من امتزج بهم /١٢٠/ ألفاً تقريباً . غير انهم مبعثرين في مجاهل الغابة الافريقية ، بين بحيرة البرت والمحيط الاطلنطي . كما لا توجد أية جماعة منهم تعيش في المروج ولا يظهر بأن احداً من الاقزام قد عاش هناك . والميزة الظاهرة عندهم هي تعلقهم الشديد بمناطقهم السكنية وهذا التعلق يجعلنا ننظر اليهم كما يقول الاستاذ (شيبستا *Schebesta*) كأطفال المناطق الانقلابية . كما نرى الغابة تحدد طريقة حياة هؤلاء الرجال الصغار . فالزواج . والعواصف نادرة فيها ، بيد ان هطول الامطار يستمر معظم ايام السنة وكذلك الرطوبة فهي ثقيلة جداً . فعند الصباح يُرى ضباب كثيف يرتفع من الارض المغمورة بالمياه بينما تبقى الآجام مبللة . غير ان الاقزام لا يخرجون من مخابثهم ابداً اذ انهم يتجنبون اوراق الاشجار المبللة ولذلك نراهم ينتظرون شروق الشمس لينتشروا بعد ذلك بحثاً عن قوتهم اليومي .

أما مراكز سكنهم فهي عبارة عن حلقات من الاكواخ المبنية على شكل نصف دائري فوق جذور الاشجار الضخمة . وبناء تلك الاكواخ من اختصاص النساء ويتألف الكوخ من مجموعة من الاغصان على شكل قوس ، ثم تغطي جوانبه بالاوراق العريضة ، والباب هو الفتحة الوحيدة في الكوخ . هذا ويستعمل

الاقزام بعض الاحيان المغارة او الكنف كملجأ لهم وقت المناسبات العصبية .

ونرى رجال الاقزام مغرمين جداً بالصيد ، فالقوس عندهم على شكل مقطع دائري ويصنع من غصن ليس له قشر محنيّ بواسطة النار . وأما الوتر فيصنع من شجر (نخل الهند Rotui) ثم يُثبت في طرفيه حلقتان من الخشب ، وكذلك السهم فهو يحمل ورقة ملفوفة على شكل ريشة الطائر ؛ كما كانت السهام ، قبل حصولهم على رؤوس الحراب الجديدة ، تصنع من الخشب الرفيع القاسي بحيث كانوا يعرضونه مدة فوق النار ، وهذه السهام تحمل في رؤوسها نوعاً من السم كانوا يحصلون عليه من بعض النباتات المعرشة . أما طقوس الصيد فكانت تستدعي مشاركة النساء حيث يرقصن طوال الليل الذي يسبق صيد أحد الفيلة .

كما تظهر عودة الصيادين المنتصرين بالاحتفال الجميل الذي يقام لهم حاملاً طابع الحماس ولا ينتهي الرقص او الغناء الا عندما يصاب الراقصون والمغنون بالاعياء . والظاهرة البارزة عند الاقزام هي احتقارهم للفخاخ ، بل يهجمون على الفيل بالحراب ويركزون هجومهم على قوائمه الخالية لقطع اوتارها . وما ان يقع على الارض حتى يقطعوا خرطومهم محدثين بذلك نزيفاً مميتاً . وفي بعض الاحيان يخاف الصيادون من ان تطأهم قوائم الطريدة الكبيرة ولذلك نراهم يقتربون منها ويطلقون حراهم المسننة في بطنها حتى تنقطع من تلقاء نفسها عن كل مقاومة او حركة .

كما انهم يمارسون الصيد الجماعي بواسطة الشبكة التي يبلغ طولها عشرة امتار تقريباً وارتفاعها متر واحد ؛ وتوضع هذه الشبكة حول بعض الشجيرات على شكل نصف - دائرة ، وبعد تركيزها يبدأون باطلاق الصيحات وبتحريك اغصان الشجر ليدفعوا الطريدة نحو الشبكة ؛ والوعول الصغيرة التي تقع فيها يقبض عليها حية اما الكبيرة فتقتل في الحال .

وفي كل صباح تنطلق النساء الى الغابة يدفعن بأولادهن امامهن وبأيديهن

اوتاد طويلة تستعمل في نزع ادران النباتات من الارض ، كما يحملن السكاكين لقطع سوق النبات وتقشير الساق الطرية منها . وعدا عن ذلك فيجمعن ايضاً الحلزون والسرطين ودود الاخشاب ودود القز والافاعي . ثم يوضع المحصول في قفة تحملها كل واحدة فوق ظهرها بحيث ترتبط بحبل يمر فوق الجبين . كما تقوم النساء ايضاً يجمع عسل النحل من الارض وذلك بحفر ثقوب تصل الى مستوى اقراص الشهد . اما الرجال فهم الذين يقومون يجمع عسل النحل من على الاشجار وذلك باطلاق الدخان على الحلايا .

وانه بمجرد قتل الطريدة والانتفاء منها يترك الاقزام مكان اقامتهم ليقيموا بعيداً ، ولكن دون ان يتخطوا حدود مناطقهم الواسعة والتي يعرف كل فرد منهم حدودها التي تعين بواسطة نهر او جدول او خندق كبير . وشيء آخر هو ان الطريدة المقتولة تخص اعضاء العشيرة التي تملك الارض التي قتلت فيها ، أما الصيد الغريب الذي يحاول احتلال تلك الطريدة فانه يطرد بلا شك .

والاقزام مثل البوشيان يعترفون بالملكية الخاصة التي تنشأ عن عمل الفرد ومن استخدام الادوات الفردية . وهذه الادوات بسيطة للغاية وتصنع من القشور والخشب وبعض النباتات المعرشة . وهي في نفس الوقت حاجات يسهل تجديدها ونقلها من مكان الى آخر . فهناك العصا الطويلة لحفر الارض والصفائح لتغليف اللحم الذي يستوي تحت الاحجار الساخنة ، وصفائح اخرى مطوية على شكل بوق بحيث يسهل نقل الديدان فيها . أما سرير النوم فهو عبارة عن مجموعة من الاوراق او خشبة كبيرة .

وعندما تأتي ساعة الرحيل يأخذ الرجل سلاحه ثم ينادي كلبه وهو الحيوان الاهلي الوحيد ، أما المرأة فتحمل قفّتها ثم ينطلق الجميع على الطريقة الهندية — الواحد وراء الآخر .

وكل ما يملكون من ادوات حديدية وخزفية يحصلون عليها من جيرانهم
السود لقاء تقديم الطرائد لهم .

وفي حالة عدم وجود قطعة الحديد التي تستعمل في اشعال النار (*Ferà*)
(*Briquet*) ، يلجأ الاقزام الى طريقة قديمة يعرفونها كي يحصلوا على النار .
وتتلخص هذه الطريقة بر كوع احد الرجال على الارض ثم يمسك بين رجليه
عوداً من الخشب الطري توجد فيه عدة ثقوب ، كما يأخذ بين راحتيه مثقباً من
الخشب القاسي بحيث يوضع طرفه بصورة عمودية في احد ثقوب العود الطري ،
ثم يبدأ بفرك المثقب بسرعة من طرفه الآخر . فلا تلبث نشارة الخشب المتوهجة
ان تسقط فوق ليف جاف او بعض القطن الذي يشتعل نوراً . ثم يبدأون في
الحال بنفخ قطعة الليف او القطن كي تلتهب النار .

وفيما يتعلق بالحلي وزينة الجسد ، فالاقزام دون سواهم لا يعرفون من ذلك
شيئاً . أما ثياب المرأة فهي عبارة عن مجموعتين من الاوراق تربطان حول وسط
المرأة ، واحدة من الامام والثانية من الخلف . بينما يحمل الرجل جلد حيوان
او مجموعة من قشور الاشجار الطويلة المدقوقة ، حول خصره بحيث تمر من بين
ساقيه .

اما التنظيم الاجتماعي فغير معروف تماماً . فجماعة الرجال الذين يجاورون
بعضهم ويمارسون الصيد سوية فهم اقرباء ويعترفون بسلطة من هو اكبر منهم
سنّاً . أما المجموعة التي لا تتغير فهي العائلة التي تضم الزوج والزوجة والأولاد
الصغار فقط . كما ان اقدم طريقة للزواج كانت تقوم على اساس المبادلة (رأس
برأس) فالخطيب مثلاً يعطي اخته او احدى قريباته الى جماعة خطيبته ، واذا
كانت احدى الفتيات التي وقع عليها التبادل عقيماً فلزوجها الحق بطلب واحدة
اخرى . وهذا يفسر بأن تعدد الزوجات لم يكن منتشرأ كثيراً .

وقد يحدث ان يأخذ احد السود امرأة من الاقزام بحيث يقدم الى عائلتها

تعويضاً عنها . وقد اخذ هذا النوع من شراء الزوجات بالانتشار . اما الزواج من الخارج *Exogamie* فهو إلزامي في العائلة الواحدة وليس في العشيرة كلها . كما لا نجد هناك ايضاً أي ترابط بين العشائر وليس للسلطة القبلية اي أثر .

ويبدو من الصعب علينا ان نُبرزَ المعالم الدينية عند الاقزام وذلك لكثرة ما دخل عليهم من طقوس وعناصر دينية غريبة من جيرانهم الذين يحيطون بهم ، غير ان بعثة مدرسة (*P. Schmidt*) تؤكد وجود عبادة الإله الواحد .

ثم أليست قبائل البامبوتي *Bambutu* ، هي التي تقدم اول ما يُستخرج من الطريدة وكذلك الفاكهة إلى الإله الذي يطلقون عليه اسم الأب *Père* او الجد *Grand-père* ???

هذا الإله هو سيد الغابات والطر ائد وهو ايضاً سيد السماء الذي يسير العواصف . بيد اننا لا نعرف مدى الاهمية التي يعلقها عليه الاقزام ولا كيف يصنفونه مع بقية الارواح الاخرى .

أما التقاليد التي تخص السحر ، فهي ايضاً لا يمكن تمييزها عن تلك التي توجد عند جيرانهم الزنوج . كاشعال النار لطرِدِ العاصفة ورمي الأوراق فيها لتبعث دخاناً كثيفاً . وكذلك تثبيت القطعة الخشبية التي شحذَ بها الوعل قرونه في القوس . ووضع بعض الاغصان الصغيرة التي لمستها الصاعقة فوق الكوخ لابعاد الصاعقة عنه .

أما الطقوس التي تتعلق بالموتى فهي تظهر بتقديم الأطعمة لهم ، وكذلك الطقوس التي يطلبون فيها العون من اجدادهم قبل بدء عملية الصيد ؛ كل هذا موجود عند الاقزام .

وأخيراً وفي كثير من مجتمعات المزارعين ومربي الماشية من الزنوج ، فان

وجود طقوس الصيد ، وادخال الأولاد الغرباء ، والعودة الى حياة قاسية في الغابة حيث الثياب متنوعة ، وحيث ينام الشباب عراة على الأرض يأكلون بعض الأحيان الطريدة نيئة ؛ كل هذا يمكن ان يكون آخر شاهد على طريقة في الحياة كانت قديماً واسعة الانتشار .

٤ - أفريقيا الشرقية *Afrique Orientale*

ان سكان أفريقيا الشرقية من أعالي النيل الى نهر الزامبيز ، ينتمون الى سلالات متعددة ويتكلمون لغات مختلفة . هؤلاء السكان لا يشكلون بيئة حضارية واحدة وهي البيئة التي تنحصر جغرافياً في منطقة البحيرات .

ان منطقة الداخل البعيدة ، وحدها ذات مناخ استوائي ؛ أما باقي أجزاء البلاد فهي تخضع لرياح موسمية أو دائمة تأتي من المحيط الهندي . كما ان كل منطقة تتلقى كمية من الأمطار تتناسب مع مستوى ارتفاعها عن سطح البحر . بيد انها تشترك كلها بفصلين جافين .

وتضم هذه البلاد البراري والمروج والأحراج حيث تكثر فيها الحيوانات الكبيرة آكلة الأعشاب ؛ كما تظهر هذه البلاد أصلح بقعة لتربية المواشي من قبل المغرمين بها . والحقيقة فان الاهتمام بتربية الماشية يطبع كل افريقيا الشرقية . فجميع سكانها تقريباً يكرهون الزراعة ، مع ان نساءهم يمارسها ، ولكنهم يمارسون الصيد كهواية فقط . أما طبقة الحدادين فهي محترمة أحياناً واحياناً محترقة الا أنها تبقى دائماً غير مختلطة بغيرها ويبقى الاعتناء بالماشية من اختصاص الرجال فقط . فالملاك يعرف كل دابة من قطيعه وتراه يقضي الساعات الطويلة في تدليك ظهورها ومداعبة قرونها او في عمل الاطواق لها او في التغني بمحاسنها منشداً لها المدائح الطويلة .

وعندما تموت إحداها يحزن صاحبها عليها حزناً عميقاً ؛ وهناك حوادث انتحارية سببها فقدان احدي الماشية ، أما الحليب فيشربونه صافياً او ممزوجاً

ببول الماشية ، وأحياناً يشربون الدم الذي يخرج من جرح في رقبة الحيوان بواسطة سهم يطلق عليه عن قرب . الا أنهم لا يقتلون الماشية الا في حالات تقديم الضحايا فقط . حتى ان مجرد فكرة قتل الحيوان في الحالات الضرورية ، لأكله مثلاً ، تقابل برفض ورعب شديدين .

وان كل غذاء نباتي يُنظر اليه نظرة فيها شيء من النجاسة ، كما يجب أن يكون تناوله مسبوقاً ومتبوعاً بالصيام لفترة معينة لأن اختلاط الاغذية النباتية مع الحليب في بطن الانسان يحمل الشؤم له وبالتالي للماشية .

وكذلك يُجمع الحليب من قبل الرجال في أوعية خشبية او في نبات القرع ، ولا يجمع أبداً في أوعية معدنية . كما تُغسل اوعية الحليب ببول البقرة ثم تُسوّد كل يوم فوق نار من روث البقر ايضاً . أما السمن فيُحضّر من قبل النساء ، وهو يستعمل لدهن الجلد فقط .

ونرى أكثر الرجال عراة تماماً وكذلك البنات أيضاً أما النساء فيحملن ثوباً من الجلد غالباً ما يكون مطرزاً بالآلئ وبكينة اخرى من الحلي المصنوعة من النحاس الأصفر توضع في اذرعهن وآذانهن وخاصة حول رقابهن حتى تصل الى ما تحت الصدر .

ومساكن هؤلاء الاقوام ذات جدران من التراب ومغطاة بالقش وشكلها دائري . وفي جهة الشمال عند القبائل النيلية مثل الشيلوك والنوير والدنكا ، نرى التنظيمات الاجتماعية تختلف من قبيلة الى اخرى . فقبيلة الدنكا مثلاً التي يبلغ عدد أفرادها أكثر من ٥٠٠ / الف نراها منقسمة الى عشائر بحسب درجة القرابة . وأيضاً الشيلوك ، الذين يبلغ عددهم ١٠٠ / الف تقريباً يشكلون وطناً واحداً يحكمه ملك واحد ، ويقسم هذا الوطن الى ست مقاطعات . وان زعيم العشيرة في الدنكا ، وحاكم الشيلوك يعتبران من (الملوك المقدسين) *Rois divins* . اذ كل واحد منها هو في نفس الوقت كاهن ومشرع وقاضٍ .

وكلاهما ، كما يعتقد أتباعها ، يستطيع ان يهيمن على العناصر الطبيعية ، فهو يراقب الأمطار ، واذن فباستطاعته ان يحجب البلاد خطر الجفاف الذي اذا ما امتد زمنه فسيقضي على المراعي .

كما تتجسد في ملك الشيلوك *Shilluk* روح بطلها ومؤسسها (نيكانج *Nyikang*) الذي اختفى في إحدى العواصف . وان المنظر الذي يلفت النظر في احتفالات التنصيب يتلخص بوضع تمثال (نيكانج) برهة من الزمن على السدة التي كانت تخصه والتي يجلس عليها الآن ملك جديد غيره .

وملك (الشيلوك) لا يمكن ان يكون مريضاً ، لانه مع نيكانج ستكون صحة البلاد في خطر ايضاً . ولهذا كانوا يختفون الملك عندما تظهر عليه أول علامة من علامات الضعف . أما مجتمعات منطقة البحيرات الكبرى وهي : ماساي *Massai* والسوك *Suk* ، والتوركانا ، فانها تملك تنظيمًا متطوراً من حيث الأعمار ؛ فالأولاد الذين يُختفون في نفس الزمن ينتمون الى مرتبة واحدة ، والحد الأقصى هو السبع سنوات . ثم يقام بعد ذلك احتفال لانتقالهم من مرتبتهم الى مرتبة اعلى . أما أول مرتبتين فتخصص المحاربين ، كما ان الشباب يعيشون على انفراد في حظيرة منعزلة حيث تأتي الفتيات العازبات كي يلتحقن بهم .

ولا يُسمح بالزواج إلا بعد المرور في المرتبة الثالثة اي حوالي الثلاثين سنة . وفيما يتعلق بالتكوين الاجتماعي نرى مرتبة السن تشكل عاملاً مهماً في العمليات الحربية ، وهذا ما يفسر لنا غالباً الهيبة التي تفرضها هجمات قبائل الماساي والتي كانت تُنظم لغزو المواشي ، كما نرى عدداً كبيراً من تقاليدهم قد انتقلت الى قبائل الزوج الأخرى في أفريقيا الشرقية .

ومن المؤكد بأن تلك التنظيمات (الرعائية *Pastorale*) النصف - عسكرية والتي يحتل فيها الشباب دوراً رئيسياً ، هذه التنظيمات تفسر لنا كيف ان هذه

الشعوب لم تحاول تأسيس دولة مماثلة لتلك الممالك المجاورة لها كالانديورو *Unyoro* والاوراندي .

هذا نوع واحد من الحضارة تظهر لنا من الأوغاندا حتى جنوب نهر زامبيز . ففي كل مكان نرى غزاة من أصل محامي يفرضون وجودهم على السكان الأصليين الزوج ، الذين يمتنون الزراعة والحرف ، ولكن دون ان يختلطوا بهم . ونرى كذلك وجود مجتمعات طبقية حيث ان الأرقاء المزارعين (الباهارا) لا يستطيعون ان يمتلكوا الثيران بل يمتلكون الماعز فقط . وعليهم ان يقدموا الموز والذرة والبيرة الى أسيادهم (الباهيا *Bahuma*) ، الذين يختصون وحدهم بتربية الماشية . كما لا توجد اتفاقات فيما يتعلق بأعمال الأرض . فالفلاح الذي يستقر على أرض احد الأسياد ، يدفع لذلك السيد قسماً من المحصول لقاء حقه في الزراعة ، والفلاح حر في ترك الأرض متى شاء . وطرق الزراعة عند (الباهيرا) هي نفسها التي توجد في كل مكان في أفريقيا . فالزوج يعزق الأرض والنساء تعشبنها ، أما اعمال البذار والحصاد فهي مشتركة . كما تجمع الحبوب في سلال كبيرة مركزة بين أعمدة من الخشب او توضع في أبنية صغيرة خاصة مركزة على اوتاد كبيرة . وأما مساكن الفلاحين فتبنى في وسط أعمالهم الزراعية . وتلعب الماشية دوراً كبيراً في هذه المنطقة اذ تشكل العنصر الأساسي في التعويض الذي يقدمه الزوج الى عائلة زوجته لتثبيت اجتماعها وتأكيد شرعية الأطفال . ومن هذا يظهر لنا بأن تعدد الزوجات يحدد بعدد رؤوس الماشية التي يستطيع الزوج تقديمها ، ونرى العكس ايضاً ، اذ انه في حالة فقدان الثروة عند احدهم يؤدي عند الحاجة الى اقتسام زوجة واحدة من قبل أخوين اثنين . ونتيجة لذلك فقد أصبحوا يحتفلون بولادة البنت أكثر من الولد لأنها ستجلب لوالدها في المستقبل عدداً من رؤوس الماشية ، أي عندما تتزوج .

اما رئيس العشيرة فلا يراقب حدود منطقته بل يراقب اعداد الماشية الكبيرة ؛ اذ ليست الحدود الا لحسم النزاع الذي يحصل على احد المراعي الخصبة مثلاً ، او

لتمييز قطعان الماشية في كل منطقة من المناطق .

ونذكر بأن امراء (البانيورو Banyoro) كانوا يوضعون سابقاً وهم في الثامنة او التاسعة من عمرهم ، الى جانب من رعاة البقر الخبيرين كي يعلموهم كل ما يختص بالتربية وطرق الاعتناء بالماشية .

والملك عند البانيورو ذو سلطة مطلقة ، ونرى من حوله اقرباءه الذين يقومون مقام الوزراء وحكام المقاطعات . وبما ان نظام الوراثة مفقود تقريباً ، نرى ان موت الملك يفتح عهداً من الفوضى في الحكم ؛ ولا ينتهي الامر الا بعد معارك طويلة بين اولاد الملك الراحل ؛ ومن ينتصر منهم يصبح ملكاً ، اما من ينكسر فيسجن او يعدم .

وكذلك الملكة فهي اخت الملك من ابيه لا من امه . والى جانبها توجد الملكة - الام التي تشغل مكاناً هاماً ، وهي الى جانب هذا موضع احترام عميق . ولكل من الملكة او الملكة - الام مقر خاص تسكنه وأعمال ادارية تمارسها . وكذلك الملك نفسه فهو محترم كأى شيء مقدس ؛ حيث نرى بعض القرارات التي تجعله مفصولاً عن الرجال البسطاء الذين يشكل احتكاكه بهم خطراً عليه . كما توجد في بلاط الملك نار من روث البقر لا تنطفئ ؛ وترمز هذه النار الى حياة الملك ؛ كما ان المحارب الذي يفرك جسده بها تزداد قوته . وعندما يموت الملك تطفأ النار القديمة وتضرم نار جديدة ثم تقسم الى أجزاء صغيرة توزع على اتباع الدولة الكبار ؛ فاذا قبلت فذلك اعتراف بالسيد الذي ارسلها .

وفي هذه المنطقة كما في الشمال يُحكم على الملك بالموت عندما تظهر عليه آثار الضعف او المرض ؛ ثم يُغسل جسده بالحليب ويلف في جلد (حيوان)^(١) . وقديماً

١ - يجب ان يكون الحيوان ضحية ، وليس غير ذلك .

كانوا يدفنون مع الملك بعض نسائه ومن على قيد الحياة مع عدد من الخدم بعد ان يكسروا اطرافهم . ويُدفن الملك في حرش مقدس ، وبعد عملية الدفن يخرج رجال الدين من الغابة ومعهم اسد صغير ؛ والأسد هو الحيوان الذي يخص العشيرة المالكة ، وان الملك سيصبح أسداً بعد موته .

والأمر البارز هو أن الماشية تسيطر على كل نواحي الحياة الاقتصادية والمادية والعملية والدينية . فالولادات وادخال الرجال في الجماعة والزواج والوراثة ، كلها تترجم عملياً الى عدد من المواشي التي تنتقل من ملكية رجل الى آخر . وفي كل مكان نرى للحليب وللذم وللعشب الذي يغذي الماشية ، قيمة رمزية الى جانب قيمتها المادية . وكما نرى ايضاً الشباب في كل مكان لا يحملون الا بغزو الماشية او بوضع اليد على مراعي جديدة . وحتى في الطقوس القضائية نرى الماشية تتدخل فيها . فالمُتَّهم من قبائل الماساي *Massai* مثلاً يشرب قليلاً من دم احد الثيران ؛ ولكن قبل ان يشربه ، يقول : « اذا كذبتُ فليخنقني هذا الدم . » .

وعندما يموت احد الرجال الطاعنين في السن او احد الاعيان، يذبحون احد الثيران ثم يدهنون جسم الميت بدهنه ويكفونونه بجلده ، اما اللحم فيؤكل في وليمة الدفن . وان اكبر شخصية في المجتمع هو الذي يتحكم بالامطار ويهيمن عليها ألا وهو المنجم *Devin* او العراف^(١) الذي يكشف عسن المستقبل ايضاً ويفسر الأحلام وبفضل نصائحه تلد النساء ، كما لا تقوم أية حملة عسكرية الى بعد ان يبدي رأيه فيها الذي هو الرأي الأخير .

لقد كان ساحل افريقيا الشرقي مسرحاً لموجة من التأثيرات الآسيوية التي لم تنقطع ابداً . ومن أي مكان جاءت تلك الموجة ، من الجزيرة العربية أم بلاد

١ - قد يكون المنجم ملكاً او ساحراً او غير ذلك .

فارس أم الهند أم اندونيسيا فاننا نلمس وجودها وخاصة بين سكان الساحل . كما نلاحظ أيضاً وجود عناصر حضارية آسيوية قديمة تركزت في داخل القارة الافريقية في المجتمعات الزراعية التي لا يزال اهلها يحافظون على نقاوة سلالتهم الافريقية .

ومن ناحية دراسة الانسان الطبيعية نرى ان سكان الساحل والجزر التي تمتد عليه مع عدد كبير من زعماء القبائل وعائلاتهم في الدخول قد امتزجوا بالدم الآسيوي . كما نجد السواحليين^(١) *Des Swahili* ، الذين يُعتبرون احدى السلالات الفرعية في جنوب افريقيا ، يدعي هؤلاء بأن اجدادهم جاؤوا من بلاد فارس في القرن الثامن بعد الميلاد ، حيث تزوجوا بنساء البلاد . ونرى في لغتهم كثيراً من الكلمات العربية ، كما تنتشر لغتهم هذه في جميع انحاء افريقيا الشرقية الانكليزية أي في كينيا والكونغو الشرقي ، وتمتد الى الجنوب حتى موزامبيق .

ولقد دخل الاسلام من الخليج الفارسي في القرن الثامن . وفي القرن الحادي عشر جاء رجال من شيراز في بلاد فارس وأنشأوا ميناء كيلوا *Klioua* ومومباسا . كما شقت الحضارة الفارسية العربية *Perso-Arabique* بواسطتهم على البلاد التي تقع ما بين موغاديشو *mogadichou* في الشمال (وسوفالا) في الجنوب . وكان التجار العرب يعيشون على تجارة الذهب من مملكة مونوموتايا *Monomotaya* بالقرب من سوفالا ، وكذلك وبصورة خاصة على تجارة الرقيق المشردين في تلك المناطق الواسعة . وكانت قوافل الرقيق المعذبة تتجه بصفوفها الطويلة نحو الساحل ، ويُرسل من بقي منهم حياً من هناك الى مدغشقر وآسيا الجنوبية وحتى أندونيسيا .

وكان هناك طريقان كبيران للقوافل يجتازان السهول الفسيحة . ويبدأ الطريق الاول من دار السلام حتى بحيرة طانغانكا ، وأما الثانية فتبدأ من

١ - كلمة عربية معناها سكان الساحل وتطلق على مجموعة معينة من السكان .

مومباسا. حتى بحيرة فيكتوريا؛ ونرى الخط الحديدي اليوم يتبع هاتين الطريقين.

ولقد ترك العرب على الساحل الشرقي اطلالا من الحجارة المنحوتة والمسلحة بالكلس كما تركوا ألواحاً حجرية طويلة توضع على القبور والتي لا تزال محفوظة حتى يومنا هذا .

وحملوا معهم الى هذه المنطقة مهنة النجارة وزراعة البرتقال والليمون والقطن وقصب السكر . وفي القرن الثالث عشر فان عرب مسقط الذين ادخلوا زراعة القرنفل الى زنجبار كانوا يُعرفون بلبس الحلي الفضية الثقيلة والتي نشروا بواسطتها مهنة الصياغة .

وكذلك تقويم الأعياد والمظهر الديني فقط هما عربيان ايضاً ، واخيراً اللباس العربي الذي انتشر بين اهل المدن وهو عبارة عن قميص طويل أبيض وقلنسوة وثوب خارجي غامق اللون ، وقبقاب خشبي مرتفع تلبسه النساء .

وكذلك سكان ماليزيا الذين جاؤوا من مناطق بعيدة قد حملوا معهم الى الساحل الافريقي شجر جوز الهند وكل الادوات التي تصنع منه ، كالملاعق والمبأشر وكذلك القوارب الصغيرة ذات الموجة الخشي .

وكذلك البرتغاليون الذين ظهروا في القرن السادس عشر بحثاً عن طريق الهند . فقد عرف السود بواسطتهم النباتات الامريكية كالذرة والمانيوك *Manioc* ، والقلقاس . ولقد اظهر البيض جشعهم لجمع الرقيق كي ينقلوهم الى مزارع العالم الجديد . ولئن كان الرقيق، الذين انتزعهم البيض عنوة من بلادهم، قد حرموا من الارث المادي ، الا انهم تركوا لاحفادهم احساسهم الخاصة وبعض التقاليد التي انحرفت قليلاً بسبب احتكاكها بما جاءها من الخارج .

وفيما عدا مدن الساحل ، فيظهر الطابع الافريقي على حقيقته . فعمل الارض يتم بواسطة المجرفة التي تستعملها النساء كما هي العادة في أفريقيا . وعبادة

الأجداد قد بقيت الى جانب طقوس التملك *Possession* وطقوس التعزيم لطرد الأرواح الشريرة *exorcisme* ، التي نجدها حتى في مدغشقر وحيث النساء يلعبن دوراً رئيسياً في ذلك ،

والى الجنوب من الخط الذي ينطلق من مصب نهر النيجر ويسير موازياً لخط الاستواء ، نرى هذه المنطقة من افريقيا مأهولة بالميلانو - افريقيين *Mélano-africains* الذين ينتسبون اليها سلالات فرعية *Sous-races* كونغولية ومن بلاد جنوب افريقيا ، وتكلم كل هذه الشعوب لغات (البانتو *Bantou*)^(١). ونستطيع بحسب الظروف الجغرافية والوقائع الحضارية ان نقسم قبائل البانتو الى :

١ - البانتو الشرقيين الذين اندمجوا بالسلالة الحامية . ويصل بعض هؤلاء الى شمال بحيرة فيكتوريا^(٢) .

٢ - البانتو الجنوبيين ، ويقطنون جنوب نهر الزامبيز (والكُونين *Cunène*) .

٣ - البانتو الغربيين أو سكان الكونغو .

٥ - افريقيا الجنوبية *Afrique Australe*

تشكل المنطقة الأفريقية جنوب نهر الزامبيز هضبة واسعة تحذو بسهولة من

١ - وهي اللغات التي تكون زيادة الكلمة *Ba* تعني جمع الكلمات التي هي من مرتبة الـ (نـتـو *Ntu*) ومعناها (رجل أو انساني) وهكذا يكون معنى كلمة *Bantu* رجال او مجموعة انسانية .

٢ - هذا الرأي غير متفق عليه تماماً ولا يزال موضع جدل .

الشرق الى الغرب ويتراوح ارتفاعها الوسطي بين /١٢٠٠ م و /٩٠٠ م :

وتقطع هذه الهضبة وديان الانهار الكبيرة الثلاثة: الزامبيز ولبوبو *Limpopo* والاورانج . ومع هذه الوديان الثلاثة تقوم ثلاث مناطق مرتفعة يزيد ارتفاعها على /١٢٠٠ م وهم: منطقة جنوب روديسيا بين نهر الزامبيز واللبوبو . والثانية تمتد في جنوب غربي اللبوبو وأخيراً الأراضي المرتفعة داخل منطقة واليس باي *Walvis Bay* .

ويخترق نهر الزامبيز من الغرب الى الشرق منطقة كبيرة من القارة الأفريقية غير ان الساحل الغربي لا يتلقى كثيراً من الانهار لأنها على نفس المستوى ، واهم نهر فيها هو الكونين *Cunène* . وأما في الجنوب فنرى العكس ، لأن نهر الأورانج الذي ينبع من هضاب (باسيتو *Basuto*) ، يجري نحو الغرب ؛ الا ان الأورانج هذا غير منتظم فهو غزير احياناً وضعيف احياناً اخرى ، وهكذا فالساحل الشرقي الذي يوجد على ارتفاع واحد معه ، يروى جيداً بعدة بحار مائية لها بعض اهميتها .

ومن ناحية اخرى نرى فقدان التعادل بسبب الرياح ؛ التي تهب بصورة منتظمة من الجنوب الغربي طوال العام ، حاملة معها الامطار في الصيف (من كانون اول الى شباط) وتمتص هذه الرياح اثناء مرورها في القارة كثيراً من الرطوبة بحيث لا تترك منها شيئاً يذكر ، ولذلك فمنطقة الساحل الغربي الداخلية والفقيرة بمحاري الماء لا تتلقى شيئاً يذكر من الأمطار .

وتتجه الرياح في الشتاء (من حزيران الى آب) نحو الشمال وهكذا فالامطار لا تجتاز ابدأ حدود الهضبة الشرقية .

وبحسب نظام الرياح والأمطار نرى الجهة الشرقية تؤلف منطقة كثيرة الري وتغطيها الأحراش والمراعي الواسعة . وكلما اتجهنا نحو الغرب نلاحظ ازدياد

درجة التبخر وظهور الجفاف في السهول الواسعة ، ويزداد هذا الجفاف شيئاً فشيئاً حتى نصل الى الصحراء .

ومن الغريب أن شبكة المياه لم تلعب دوراً كبيراً في هذه المنطقة ، فالأنهار غير صالحة للملاحة ، وكذلك الأنهار الصغيرة أو الجداول لمجاريها سريعة للغاية ، كما تجف فترة من الزمن أثناء السنة . ولا نجد من السكان من يمتن صيد الأسماك ولا من يتجولون في القوارب أثناء الرحلات الطويلة ، أما خصب البلاد فيتوقف مباشرة على مياه الأمطار ومياه الأنهار .

ويبلغ عدد قبائل البانتو أو سود أفريقيا الجنوبية الذين يسكنون هذه المنطقة الواسعة ثمانية ملايين . ويقسمون سياسياً الى عدد كبير من القبائل بحيث لكل واحدة اسماً خاصاً بها وأرضاً محددة ورئيساً هو محور حياتها العامة .

وتتراوح القوة العددية للقبيلة الواحدة بين عدة آلاف ونصف مليون ؛ فدولة الباسيتو *Basuto* التي يبلغ عدد سكانها هذا الرقم ، قد ظهرت الى الوجود منذ قرن من الزمن بفضل زعيمها (موشيس *Mochech*) الذي ساعد على تكوينها بضم عدد كبير من القبائل الصغيرة التي تنتمي الى أرومة (التسوانا *Tsvvana*) .

كما ان سكان (النساتال) و (زولولاند) الذين كانوا ينقسمون سابقاً الى عدد كبير من القبائل قد توحدوا اليوم تحت اسم واحد هو (الزولو) وهو اسم لاحدى الجماعات الصغيرة التي استطاعت في اوائل القرن التاسع عشر ان تبتلع جميع جيرانها . وكلنا يعرف تماماً الدور الذي لعبته قبائل (الزولو) في القرن الماضي .

وباستطاعتنا ان نختصر تاريخ جنوب شرقي افريقيا في مجموعة من الحروب المتلاحقة والمعقدة التي تسير كلها على نهج واحد ، وبمجموعة من الهجرات ، وبالإبادة الجماعية *Exterminations* ؛ والتي أدت كلها أخيراً الى الوحدة

الجديدة التي تراها اليوم :

يملك زنوج جنوب افريقيا حضارة واحدة ، مع تغييرات بسيطة تختلف من مكان الى آخر حسب درجة تأثير العناصر الخارجية ، بحيث خلقت بعض الفوارق في نوع الحياة والتنظيمات الاجتماعية والطرق الدينية .
ونستطيع أن نميز من خلال هذه الفوارق :

١ - مجموعة الجنوب الشرقي وتضم : (*Ngoni* ، التونغوا *Thonga* ، الفاندا *Venda*) .

٢ - مجموعة الوسط وتضم (السوتو *Sotho* ، التسوانا) .

٣ - المجموعة الغربية وتضم : الهيريرو *Herero* ، والوفامبو *Ovimbundu*) .

وتمارس جميع قبائل المنطقة الوسطى والغربية طقوس الختان التي تركتها القبائل الشرقية منذ قرن من الزمن . وكذلك عادة تغيير شكل الاسنان بشحذها بآلة حادة أو استخراجها ، هذه العادة لها نفس الوظيفة في المنطقة الغربية وعند قبائل التونغوا في افريقيا الشرقية البرتغالية . كما ان فتح الجروح في الجسد يُنظر له نظرة مشرفة في المناطق الشرقية والشمالية . واخيراً فقد أعطت قبائل الزولو والكسوزا *Xosa* الى جيرانهم البوسنيان والهوتانتوس عادة قطع احدى السلاميات التي يطبقونها للغاية ذاتها .

ويعيش السكان الاصليون على شكل تجمعات مبعثرة هنا وهناك يطلقون عليها اسم (كراال *Kraal* ؛ ويضم كل تجمع عدداً من افراد العائلة الواحدة .

وحيث نرى السكان في المنطقة الوسطى يميلون الى التجمع على شكل قرى فان كل تجمع عائلي يبقى بعيداً عن الآخر ، ويحاط المسكن بأوتار طويلة على شكل بيضوي أو نعل فرس ، كما توضع فيه الأغنام أو الماعز طوال الليل ، الى

جانب اكواخهم التي هي غالباً ما تكون دائرية الشكل وذات سقف مخروطاً أو
أحياناً على شكل خلية نحل ؛ وتبنى كل هذه الاكواخ على أبعاد منتظمة داخل
السور .

وكانت ثيابهم قديماً تصنع من الجلد ، وغالباً ما تكون مطرزة باللآلئ ؛
كما تصنع من تلك اللآلئ الزناير والعصائب التي توضع فوق الجبهة . ولقد حلت
هذه اللآلئ الرخيصة محل الحلقات التي كانت تصنع من قشر بيض النعام أو
المعادن والتي لا يزال البوسنيان يستعملونها حتى اليوم

ويتركز الاقتصاد عندهم على تربية الحيوانات الكبيرة وعلى زراعة الأرض .
وان التمييز بين هذين النشاطين ظاهر في الشمال ، معدوم في الجنوب .

وكذلك الغذاء فأكثره يعتمد على حساء الحبوب كالذرة وغيرها وعلى اللبن
الرائب . وأما العنابر التي يستعملونها فهي عبارة عن جرار كبيرة أو سلال
ضخمة أو ابنية صغيرة منعزلة .

أما قبائل النجوني (Ngoni) التي تضم (الكسوزا Xosa) في السكاب
(والزولو Zoulou) في الناتال ، فانها تضع الحبوب في مطامير داخل منازل
التجمع العائلي Kraal ، وقريبة جداً من الماشية التي هي اعز ما يملكون .

وفيما يتعلق بحلب الابقار فهو عمل شريف ومن اختصاص الرجال فقط . اما
استخدام الثيران للركوب ولحمل الاثقال فهذا امر لا مجال للشك فيه عند جميع
السكان . والماشية الكبيرة هي قبل كل شيء علامة من علامات الثراء وهي عملة
للمبادلة في حالات الزواج ؛ بيد انهم لا يأكلون اللحم الطرائد أو لحم الضحية
وان عملية تذويب المعادن التي جاءت من افريقيا الشرقية تبدو حديثة العهد في
هذه البلاد ، وهي العمل الوحيد الذي يشرف عليه رجال اختصاصيون . أما
بقية الاعمال الاخرى فتبقى ضمن اطار محلي ؛ فالنساء تقوم بصناعة السلال

والقدور الترابية ، أما الرجال فيشتغلون الخشب ويحفرون أوعية الحلا وينحتون مساند الرأس appuis-tête ، والملاعق ذات المقابض المزينة بصور أنواع الطيور المختلفة . ويبقى هناك التماثيل الصغيرة والأقنعة التي هي عبارة عن تمثيل انساني الا انه فريد في نوعه .

ويعترف السود في جنوب افريقيا بالنسب في خط الأب فقط ؛ فالطفل ينتمي الى جماعة والده كما ينشأ بين اقربائه لأبيه وكذلك تعيش الزوجة الى جانب زوجها . اما الخال ، فهو عدا عن انه يمثل الخط الامومي في العائلة فهو يلعب ايضاً دوراً هاماً وخاصة في السنوات الاولى عند الطفل وما بعدها بقليل .

وتتميز قبائل (النجوني Ngoni) عن جيرانها بأنها تحرم شرعياً الزواج بل وكل علاقة جنسية بين اثنين يلتقيان في النسب عند أحد الجدود (الاربعة)^(١) . ما قبائل (السوتو) فعلى العكس ، اذ نراها تجيز الزواج ببنت الخال ، والزواج ببنت الاخ من الأب .

وفيما يتعلق بالتنظيمات السياسية والعائلية ، فهي تنبثق كلها من السلطة الابوية ؛ وان البيت الذي يضم العائلة الكبيرة يعطينا صورة واضحة عنها .

يقول (جينو Junod) في معرض حديثه عن التونغا Thonga ؟ (ان القرية عندهم هي نتيجة لوجود العائلة » .

بينما لا نجد اثرأ لمثل هذا التنظيم العائلي عند قبائل الزولو ، والسبب في ذلك تطبيق نظام عسكري عام بحيث اصبح التجمع العائلي الصغير Kraal ، عبارة عن معسكر ، ولا عمل لرب العائلة الا حراسة هذا المعسكر ونقل الاوامر التي يتلقاها اليه .

١ - والد الام والدة الام ، والد الاب ووالدة الاب .

وفي كل هذه المجتمعات نرى منصب الزعامة يعود الى من هو اكبر سناً ثم ينتقل بعده الى اخيه البكر ومنه الى اخيه الثاني . كما كانت العشيرة تضم عدة قرى بحيث يكون مؤسسوها اخوة او احفاد الجد الاول الذي اسس العشيرة كلها .

وشيء آخر نراه وقد انتشر وهو اسم التمجيد المشترك بين افراد العشيرة الواحد : فاسم (ايزيبونغو زولو Isibongo Zoulou) مثلاً هو غالباً ما يطلق على الجد الاول . وهذه علامة من علامات التدليل ان نتوجه الى رجل باسم التمجيد لا باسمه الشخصي .

ونرى هناك عدة قوانين تتعلق باسم التمجيد . فمن يحمل اسم ايزيبونغو من قبائل الزولو لا يمكنه ان يشرب الحليب الا مع شخص آخر يحمل نفس الاسم . ففي هذا الاشتراك بشرب الحليب تنشأ اخوة دموية بين هذين الشخصين ، ويُمنع على كل واحد منهما الزواج بامرأة من عشيرة أخيه الجديد .

وان اسم التمجيد عند قبائل السوتو هو (سيبوكو Seboko) الذي يشير الى احد الحيوانات كالتمساح او الفيل او الاسد او القرد ... الخ . وكل من يحمل هذا الاسم لا يستطيع ان يأكل اللحم او يستعمل الجلد حتي يقتل حيواناً من الحيوانات الضارة ، وعند ذلك تُجرى له عملية تطهير ضرورية .

كما نجد أيضاً بأن عبادة الاجداد تشكل في هذه البلاد قاعدة الحياة الدينية . فعند العائلات التي تخضع للنظام الأبوي نرى رئيسها هو وحده الذي يستطيع ان يشفع للموتى . وتقضي بعض الطقوس عدم اقامة أية حفلة لشرب البيرة قبل ان تُرفع حصة الاجداد ثم تراق على الأرض ؛ كما لا تقام أية وليمة الا وللأجداد حصة فيها . فأجداد الزعيم هم مصدر قوة القبيلة كلها وهم يسهرون على كل شيء فيها .

وأخيراً نقول بأن العمل السياسي يرى ارتكازه القوي في الدين . وتعتقد قبائل الزولو بوجود إله خالق هو (الأونكولونكولو Unkulunkulu) الأكبر ، وهو يتميز عن إله الجو الذي يستطيع بعض السحرة ان يراقبوه ، بمجرد القيام ببعض الطقوس الدينية الأصيلة .

وأن (الأونكولونكولو) الأول لم يكن يُعبد حيث لم يكن له من ممثل على الأرض .

وهناك قبائل الهيريرو les Herero في جنوب غربي افريقيا الى الشمال ويشوانالاند Bechuanaland ؛ فهم ، كما يرى عالم تاريخ الانسان الطبيغي ، من زلوج افريقيا الجنوبية ، وأنه لا شيء في صفاتهم الفيزيائية ما يجعلهم منعزلين عن جيرانهم . أما عالم اللغة ، فيصنف لغة الهيريرو مع مجموعة البانتو في افريقيا الجنوبية . بينما يرى عالم السلالات نفسه أمام ثقافة مادية وتنظيم اجتماعي يستوجبان الوقوف عندهما بعض الوقت .

يبلغ عدد سكان قبائل (الهيريرو) حوالي /٣٠/ الف ، وهم من مربى الماشية ، بحيث نرى نشاطهم في حياتهم يتركز حول اهتمامهم الشديد بماشيتهم . وبالبحث لها عن مراعي ... الخ .

ومن هنا يبدو لنا الشبه الكبير بين معيشتهم ومعيشة مربى المواشي في شرق افريقيا . وتستطيع النساء عند الهيريرو حلب الماشية كما هو الحال عند الهوتانتوس وعكس نساء افريقيا الشرقية .

أما ملابسهم فتصنع من الجلد كما هي الحال عند كثير من الرعاة . وكذلك الحلي التي يحملونها فهي ثقيلة جداً ، كما ان الأقراط المعدنية التي تزين المعاطف الجلدية تذكرنا بقبائل (النيليين les Nilotes) ، وحتى الزناير التي تصنع على شكل دوائر صغيرة من قشر بيض النعام بحيث يثقبونها ويعلقونها بخيط ؛ هذه

الزنانير تذكرنا ايضاً بقبائل الكوازان ، أقرب جيران الهيريرو . أما الشيء الظاهر عندهم في تنظيماتهم الاجتماعية ، والذي يبعدهم عن بقية زنوج جنوبي افريقيا ، هو اعترافهم بالبنوة المزدوجة double filiattou . اذ ان كل فرد عندهم يحمل نسبين ، نسبة الى عشيرة أبيه ونسبة الى المجموعة التي تنتسب اليها امه .

فمجموعة (الباتريلينيير Patrilinéaire) أوروزو oruzo ، تشغل داخل المنطقة مجموعة من المنازل التي تبنى على شكل دائري ، أما كوخ زوجة الزعيم الاولى فيقع تجاه المذبح الذي تشعل فوقه نار الأجداد المقدسه وتقوم على حراسة الزوجة مع بناتها . فمثل هذه الطقوس التي تتعلق بالنار المقدسة ، الى جانب طقوس الجد الأول ومثله الذي هو الزعيم ، شبيهة بطقوس النيليين والهيريرو .

ويعتقد الهيريرو بوجود إله للسماء والأرض هو نديامي كارونغا Ndyambi Karunga ، كما نجد إله للسماء في جميع أنحاء غرب افريقيا وهو (نيامي او نزامبي او نيامي Nyami , Nzambi , Nyambi . ونرى ايضاً عند الهيريرو وجود الأشجار والأحراش المقدسة التي يعتبرونها مهداً لأجدادهم القدماء ؛ ومثل هذا ايضاً نجده عند جيران الهيريرو كالمزارعين في أنغولا ومنطقة الزامبيز .

ويسكن حوض الزامبيز (جنوب أنغولا وروديسيا الشمالية) جماعة من السكان المزارعين الذين وجدوا في هذه البقعة منذ القديم ، وتتميز هذه الجماعة بالدور الهام الذي تلعبه النساء ، بحيث يمكن لبعضهن تولي السلطة السياسية . كما ان بيئتهم الطبيعية التي تتكون من سهول واسعة قليلة الرطوبة ومنقسمة الى مناطق عشبية واسعة ، تسمح لهم بتربية المواشي وبممارسة الزراعة بواسطة المحرفة . بيد ان مجتمعات الرعاة مثل : (الأوقامبو في انغولا والإيلا ila في روديسيا) فهم شواذ لما ذكرناه عن غيرهم كما ان واقعهم يدل على وجود نفوذ خارجي . وفي الحيز الأرضي الصحراوي الضيق الذي يمتد على الساحل بين الاطلنطي وجبل بنغالا Benguela ، نرى مجموعات من القبائل الرحل التي هي كما يظهر مزيج من البوشيان والتي تشكل همزة الوصل مع افريقيا الجنوبية .

فالقرى هي نفس قرى المزارعين القدماء ، والمساكن اسطوانية الشكل وذات سقف على شكل مخروط وغالباً ما تكون تلك المساكن محاطة بسياج من الأوتاد الطويلة أو من اللبن الأسود ؛ أما نسيج الثياب فكان قديماً من القش المدقوق Battue ، ولقد اختفت تلك الثياب ولكنها تظهر فقط في الاحتفالات الدينية . بينما نرى الثياب المصنوعة من الجلد المصبوغ تظهر عند الصيادين ومربي الماشية . وأما النباتات التي تزرع فهي بحسب تاريخ معرفتها : الذرة البيضاء ، ثم الذرة الصفراء (عُرفت في نهاية القرن السادس عشر) ، وأخيراً نبات المانيوك Maoinc . وتستخدم النساء اثناء عملها المجرفة ذات قبضة معقوفة ، وتوضع شفرتها الحديدية في طرفها الآخر على شكل زاوية حادة . كما يستعملن أحياناً مجرفة ذات مقبض متشعب بحيث يتسنى مسكه باليدين معاً . وتظهر لنا في الحقل الفني اعمال النحت الكثيرة التجاعيد ، كما في الاقنعة التي تستعمل اثناء الطقوس الدينية في احتفالات ادخال الأولاد في القبيلة ، وهي اقنعة مصنوعة من القماش او من الخشب .

أما بَدَلُ الزواج فلا وجود له عند قبائل الياو Yao في نيسالاند Nyssaland ؛ حيث يأتي الزوج ليسكن عند اهل زوجته وكذلك اولاده فهم ينتمون الى والدتهم ، كما ان سلطة الزوج عند قبائل الياو هي عملياً لا شيء ؛ فالشخص المهم في العائلة هو اخو الزوجة البكر .

ويقوم الزوجان كما ذكرنا بين افراد عائلة الزوجة . وعلى الزوج على ان يقوم بحراثة ارض والد زوجته (عمه) وان يقدم لعمه بعض العطايا versements التي تطلب منه ؛ وعندما يقدم آخر عطاء له يتخذ الزواج صفته النهائية ويُسمح للزوج ان يصطحب معه زوجته واولاده . ونلاحظ في مثل هذه المجتمعات التي تعتمد على النسب الامومي ، ان الغلام الذي اجتاز سني الطفولة يذهب الى بيت خاله الذي يتحمل عبء نفقاته وتربيته . وعندما يموت الخال يستولي اخوته على املاكه كلها . ولكن في حالة عدم وجود اخوة له فيان الابن البكر لاخوته البكر يستولي على املاكه من ارض وأثاث

وغير ذلك ويكون مكلفاً برعاية أرملة خاله .

ومن هنا نستطيع ان ندرك حالة اختيار vieillard يتم أولاً بتأمين مستقبل ولده وثانياً بالتزاماته نحو وريثه الشرعي وهو ابن اخته . وهكذا تأتي أهمية الزواج ببنت الخال في مثل هذه المجتمعات . وقديماً كان هذا الزواج المرغوب يوفق بين قوانين الوراثة ومصالح الزوجة بحيث يسمح لهذه الزوجة ان تتمتع بالاملاك التي يتركها الخال لابن اخته والتي يتركها والدها لزوجها .

وننتقل الآن الى مجتمعات المنطقة الوسطى مثل : التيفوكوي Tyivokvue ، والإيلا ila ، والروستا Roste) . حيث نجد فكرة الموت عندهم تشبه الدودة التي تخرج من الجنة منحلة منها لتصبح فيما بعد طيراً جارحاً ؛ ولقد جاءت هذه الفكرة من الشرق ، وهي تظهر في المجتمعات الايستقراطية في منطقة البحيرات ، وعملية المسخ هذه لا تحدث إلا للرجال البارزين فقط . وكذلك عبادة جماجم الزعماء فهي ربما كانت نتيجة تأثيرات شرقية ايضاً ، بينما عبادة شجرة القرية المقدسة تعود أصولها الى مناطق الغرب والشمال .

كما نرى ايضاً في جميع انحاء انغولا والمناطق الجنوبية البعيدة يشيرون الى وجود اكوام ترابية صغيرة ، هي ، كما تقول التقاليد ، قبور الصيادين المشهورين . وتذكرنا هذه القبور بقبور (ايتسي ايبيب Heitsi eibib) وهو الروح المهيمنة على المروج والصيد والذي لا يزال البوشيان والهوتانتوس يولونها كل احترام واجلال .

٦ - أفريقيا الاستوائية Afrique Équatoriale

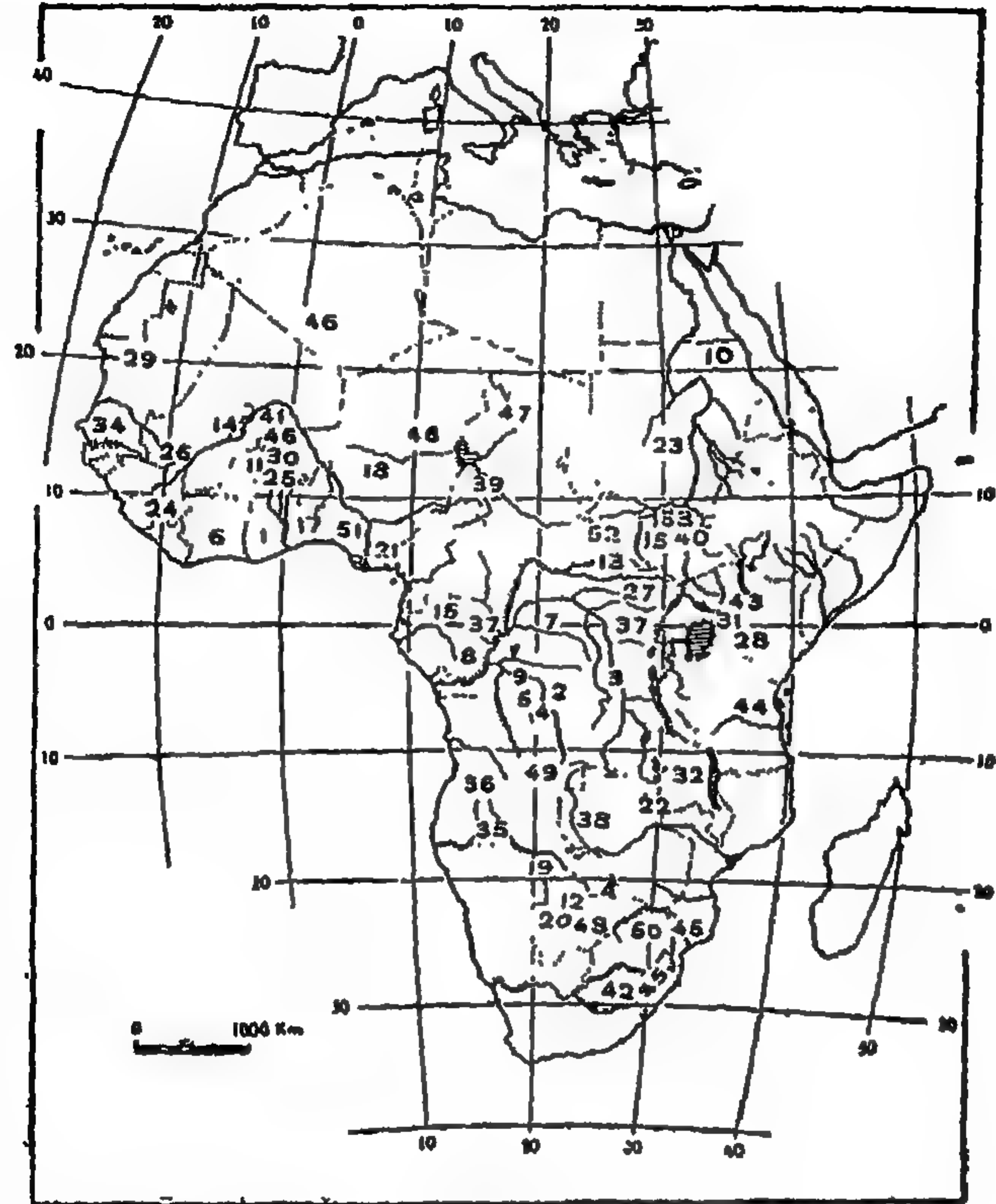
ان الغابة الاستوائية الكبيرة التي هي قلب افريقيا او (قلب الظلمات Cœur des ténèbres) ؛ هذه الغابة هي موطن السود الكونغوليين .

وتضم هذه المنطقة من الناحية السياسية ، اكبر جزء من الكونغو البلجيكي والكونغو الأوسط والغابون Gabon وغينيا الاسبانية ومنطقة جنوب الكاميرون . وتشرف على هذه المنطقة من الشرق المرتفعات المتواصلة التي تحيط بالبحيرات الكبرى ، فاذا بها على شكل صحن منتظم الأبعاد ، او على شكل وعاء ضخم يمر مركزه تحت خط الاستواء قرب كوكيتها فيل .

أما الانخفاض الوسط الذي لا يزيد على ٤٠٠ م فهو محاط بهضاب مدرجة لا يخترقها إلا ممر نهر الكونغو المائي . ويعتبر نهر الكونغو من اكثر أنهار العالم انتظاماً ، فهو يتابع عند مجراه الأوسط قوس خط الاستواء ولهذا فهو يستفيد من امطاره المنتظمة الثابتة ، ولا يعرف تلك الفيضانات التي تزيد من مياه نهر النيل والزامبيز أو النيجر . بيد أن مجموعة التضاريس المدرجة تجعل مجرى ذلك النهر عبارة عن خط كثير التعرج .

كما ان الشبكة المائية الكونغولية ، من أنهار وروافد ، تتألف من مقاطع نهريّة غير متناسبة ، ومفصولة عن بعضها بمجموعة من الانخفاضات والارتفاعات التي سببتها الأنهدامات العميقة حول المنطقة بحيث تنتشر الشلالات الكثيرة والمجاري السريعة الى جانب القنوات الأخرى التي تنتشر هنا وهناك .

وينص حوض الكونغو بالمياه الكثيرة ، فالأنهار القوية العديدة ، والبحيرات والمستنقعات وغابات الأشجار الواسعة ، كل هذا يجعل الظل والرطوبة يخيمان في كل مكان .



الشكل - ٥ - خارطة السجلات

۱ - آشانتي	۱۹ - ھيرپرو	۳۷ - بيجمي - الاقزام
۲ - باکوبا	۲۰ - ھونتوس	۳۸ - روستا
۳ - بالوبا	۲۱ - ايبو	۳۹ - سارا
۴ - بالوندا	۲۲ - ايل	۴۰ - شيلوك
۵ - بامبالا	۲۳ - کاباشي	۴۱ - سونغي
۶ - باولي	۲۴ - کيسي	۴۲ - سوتو
۷ - بارومي	۲۵ - لوبي	۴۳ - سوك
۸ - باتيكي	۲۶ - مالنكي	۴۴ - سواحي
۹ - باياکا	۲۷ - مانغييتو	۴۵ - تونغا
۱۰ - بيدجا	۲۸ - ماساي	۴۶ - تواريج
۱۱ - بوبو	۲۹ - مورس	۴۷ - توبو
۱۲ - بوشيان	۳۰ - موساي	۴۸ - تسوانا
۱۳ - بونغو	۳۱ - ماندي	۴۹ - تيفوکوي
۱۴ - بوزو	۳۲ - نغوني	۵۰ - فاندا
۱۵ - دانکا	۳۳ - نویر	۵۱ - يوروب
۱۶ - فانک	۳۴ - اولون	۵۲ - زاندي .
۱۷ - فون	۳۵ - اوفامبو	
۱۸ - ھاوسا	۳۶ - اوفمبوندر	

أما الماشية فلا نجد منها سوى الماعز فقط .

وفي كل يوم تظهر الشمس فوق تلك الكميات الهائلة من الماء ، نراها تقوم بعملية تبخير شديدة ، وكذلك تمتلئ السماء بعد ظهر كل يوم بالغيوم ؛ وغالباً ما تحدث تلك الغيوم عند غروب الشمس بعض العواصف ؛ أما الليل فهو على العموم نير ومشحون بالرطوبة ، وهكذا حتى يطلع النهار وتبدأ عملية التبخر من جديد .

أما الأمطار فتعطي طوال السنة وتبلغ قوتها في شهر آذار وتشرين الاول وكذلك تتأرجح الحرارة بصورة عامة بين ٢٦° و ٢٨° .

ومثل هذا الاستمرار في المناخ يمنع وجود الفصول والمواسم تقريباً ، لأن الأيام والشهور هي متشابهة ، وكذلك لا تظهر الطبيعة بأنها تحمل شيئاً جديداً .

وفوق الهضاب التي تحيط بالبحوض نرى نظام الأمطار الاستوائية الدائمة يفسح مجالاً لوجود نظام دائرة الانقلاب بأمطاره الموسمية ؛ ولذلك نرى الغابة تصبح أقل كثافة وتنحسر قليلاً امام المرج الأخضر الشاسع .

ويغطي السهل في الجنوب جميع الهضاب التي تمتد ما بين نهر الكونغو والزامبيز ومنطقة كاتانغا . بينما لا يبدأ هذا السهل الا عند أعالي نهر الأوبانغي *oubangui* ومنابع السانغا *sangà* حيث يتصل بالمنطقة السودانية . تكون المساكن في الغابات على شكل مستطيل وهي مبنية من الخشب وأوراق الشجر . ويتألف الكوخ قبل كل شيء من دريئة من الأغصان الصغيرة تستند على احد الاغصان المنخفضة ، وعقداً يرتفع الكوخ يظهر سقفه المائل مع جملون له ، بحيث تستند الواجھتان من الأعلى على جسر خشبي ومن قاعدتها على أعمدة خشبية ؛ وأما الجدران فهي من الأغصان او قشور الأشجار .

وتمتد الأكواخ على صفين متقابلين بحيث تشكل ما بينها شارعاً يتجه بشكل

عمودي على النهر ، كما يُبنى في طرف كل شارع بيتاً مشتركاً للجميع ؛ ويخصص هذان البيتان للرجال فقط حيث يأكلون فيها ويستقبلون الغرباء أيضاً . أما الفراغ الأرضي الذي يحيط بالأكواخ من الجانبين فيزرعونه موزاً وبعض النباتات الدرنية وذلك كاحتياط للطوارئ في حالة فقدان مؤونتهم .

ويعارس هؤلاء الاقوام الصيد بواسطة الحُفَر ، حيث يصفون الحوازيق في أسفلها ثم يغطونها بالأغصان الصغيرة ، وبهذه الطريقة يستطيعون الإمساك بالطريدة . أما الحملات الجماعية التي يرسلونها للقطاف فتتم في الفصول التي تقل فيها الرطوبة ، أي بعد مرور الشمس بمنطقة السميت *Zénith* . ويجمعون أثناء قطافهم كمية من الحبوب ، والثمار البرية ، وأهم غذاء يبحثون عنه هو تمر البلح الزيتي *palmier à huile* ، حيث يستهلك أهل البلاد لوز *Amande* الغني بالزيت ، وكذلك شجر الآسيا *Ascia* وهو من فصيلة البطم بحيث يغنون ثماره فأما ان يأكلوها او يتركوها كاحتياط بعد ان يحفظوها مع الملح والفلفل الأحمر .

وبعد مضي عدة سنوات ، تجهز القرية حملة للزراعة . فيبدأ الرجال بقطع الشجيرات والاعشاب من الأرض التي تحيط بمساكنهم كما يقطعون الأشجار الكبيرة فلا يتركون منها سوى جذعها على ارتفاع مترين او ثلاثة ، ثم يحرقون ما قطعوه ليجعلوا من رماده سماداً للأرض . وبعد هذه العملية يبدأون بزرع الموز ونبات المانيوك *Manioc* ، والبندورة وغير ذلك من النباتات المعروفة عندهم . أما العنابر فلا وجود لها عندهم ، لانهم يجمعون حاجتهم الاستهلاكية من الأرض يوماً بيوم ، ومثل هذا العمل يعيد الى أذهاننا حياة جيرانهم الأقزام ، اذ نرى النساء عندهم يقمن بأعمالهن اليومية التي تنحصر بجمع جذور النباتات القابلة للاستهلاك ، ومثل هذا العمل تقوم به نساء السود اللواتي يجمعن كل مساء بعض نباتات المانيوك والقلقاس لتحضير الوجبات الغذائية للرجال . وبعد فترة من الزمن تضعف الأرض التي يستعملونها لزراعتهم وتصبح قليلة الخصب ولذلك يضطرون للذهاب بعداً في الغابة ، كي ينشئوا أرضاً جديدة بعد قطع أشجارها .

وبعد ان يختاروا المكان الجديد ، يبنون منازل مؤقتة يسكنها بعض الرجال والنساء الذين يقومون بهذا العمل طيلة المدة اللازمة لاتمام أعمالهم التحضيرية . وعند الانتهاء من زراعتهم يتركون في تلك المساكن بعض الرجال ليقوموا على حراسة الأرض من بعض اللصوص والحيوانات الخريسة كالقرد وهرس البحر والفيلة ، وهكذا دواليك حتى تصبح هذه الأرض مجدبة فينقلون الى غيرها ... حتى يأتي زمن تصبح فيه الأراضي التي تحيط بهم غير صالحة للزراعة . وعند ذلك تلتقل القرية برمتها وتغير مكانها . وعلى بعد /٢٠/ او /٣٠/ كيلومتراً تنشأ قرية جديدة . ولكن ليس من الضروري ان تضم هذه القرية الجديدة كل سكانها السابقين اذ نرى بعضهم بعضهم يفضلون التمرکز في مكان آخر او ينضمون الى أقاربهم الذين يسكنون بعيداً عنهم .

ونرى في الهضاب التي تشمل المنطقة المكشوفة من غياض وسهول وغيرها ، ان تجمعات السكان أقوى منها في أماكن أخرى ، وان انضم القرى الى بعضها مألوف وكثيراً ما يحدث ؛ كأن تتحد أقسام القبيلة المختلفة وينضم أفرادها تحت لواء زعيم واحد ، او ان تقوم هناك محالفات وقتية أثناء حملات الصيد ، او للغزو وهذا ما كان يحدث قديماً . كما ان شكل البيت الاسطواني ، الذي حل محل الشكل المستطيل ، أصبح يتألف من سقف مدبب يُغطى بالقش . الا ان القبائل التي تسكن أعالي حوض نهر الكاساي *Kassai* ، لا تزال تبني بيوتها على شكل مستطيل . ولكن مناطق وديان الغابات التي تكثر فيها مجاري المياه العريضة هي اكثر المناطق ازدحاماً بالسكان : فهناك قبائل الباياكا *Bayaka* والبابامبالا *Bambala* والباكوبا *Bakuba* ، التي تختلف حياتها عن حياة سكان الغابة وعن حياة سكان السهول ، وهي تجمع بين الحياتين معاً مع وجود صناعات بدوية راقية .

أما في الشمال الشرقي فعلى العكس ، اذ دخلت البيوت ذات الشكل الاسطواني الى الغابة مع دخول قبائل الزاندي *Zandé* وقبائل المانغبيتو

Mangbetu الذين جاؤوا من جهة الشمال .

وتتميز الغابة بأنها تستقبل القادمين اليها من الرجال ولكنها لا تفيد أحداً منهم ؛ فهي قبل كل شيء تعيق المواصلات وتفرض بحكم واقعها توزيع الجماعات المدحورة التي طردت من المناطق السهلية وجاءوا يطلبون ملجأ فيها . وتبلغ كثافة السكان فيها نسبة ضئيلة حيث تصل الى اثنين في الكيلومتر المربع ، ورغم ذلك فهي تضم في داخلها عدداً كبيراً من المجتمعات الجزأة . ولا يوجد سوى ضفاف الأنهار التي تعج وحدها بالسكان رغم وجود ذبابة الشي - تس . لأن وجود النهر يسمح بالانتقال من أرض الى أخرى لزراعتها واستثمارها ، كما ان وجود القوارب يحل مشكلة الانتقال من ضفة الى أخرى . كما ان القناة المتفرعة عن نهر الكونغو بين [ستانلي فول *Stanley Falls* وستانلي بول *Stanley Pool*] ، هي قناة صالحة للملاحة ولا تنقطع الحركة التجارية فيها بواسطة قوارب قبائل الباتيكى *Batéké* والبالولو *Bâlolo* ، والبارومي *Bârumbi* . وأما المواد التي يتم تبادلها فمتنوعة : فهناك الآراشيد والمانيوك والسمك المدخن *fumé* ، والعاج ولوز شجر البلح الزيتي والكاوتشوك . وعند العودة يحمل التجار الأدوات النحاسية من قبائل البادوندو *Badondo* والأقمشة المصنوعة من ليف شجر الرافيا *Raphia* وكذلك الأوعية الفخارية التي يصنعها سكان البلاد الأصليين . وكذلك نرى البضائع الأوروبية التي يكدها التجار في مراكزهم على ضفة النهر كي يتم بيعها فيما بعد .

كما ينتشر على طول المجاري المائية الصالحة للملاحة جماعات اختصاصيون في نقل البضائع فوق الماء . فهناك قبائل الاورونجو *Oouroungou* في منطقة الاوغوي *Ogooué* ، وقبائل البانغو *Bongo* والزاندي *Zandé* في منطقة الأوبانجي العليا *Oubangui haut* ، وقبائل البياكا *Bayaka* واللولا *Lulua* مع بعض قبائل البولوندا *Balunda* على ضفاف الأنهار في حوض كاساي *Kassai* . ليس هناك عملة حقيقية للتداول ، بل نجد بعض الأدوات المعدنية ذات

ذات الأبعاد المختلفة والوزن المختلف أيضاً تقوم مقام النقود ، كُنصال السيوف القديمة او حديد الفؤوس او حديد رؤوس الحراب ؛ وكذلك الآلىء المصنوعة من الزجاج او الخزف التي توجد في كل مكان تقريباً ؛ في رقاب العجايز مثلاً او محفوظة داخل الاكواخ او مدفونة في الأرض مع أصحابها . أما ادخال الاولاد في القبيلة فغالباً ما يتميز بعملية الحتان ؛ او تقام بمناسبة حفلة تُقدّم فيها الضحايا ، كما هو الحال في بلاد الشمال .

ومها كانت طبيعة عملية الادخال هذه فقد اصبحت تقام خارج القرية ، لأن مجتمع الرجال قد أصبح كما يبدو مجتمعاً سريعاً تقريباً . ويرافق زمن البلوغ عند البنات فترة من الانعزال ، بحيث تبقى البنت دون عمل ، وتحاول الأكل كثيراً ، اذ عليها ان تصل الى الزواج ممتلئة الجسم وذات بشرة زاهية .

أما نظامهم الاجتماعي فغالباً ما يكون ديموقراطياً ، وكذلك العشائر فهي تعتمد على النسب الأبوي ، ما عدا بعض المجتمعات الصغيرة التي تعتمد على النسب الأموي والتي توجد في جهة الغرب .

أما الوحدة الاجتماعية المعترف بها فهي القبيلة او العشيرة ، بحيث يعتقد رجالها بأنهم جاؤوا من جد واحد ثم توزعوا في عدة قرى . أما القرية التي غالباً لا تستقر في مكان معين ، فهي لا تخضع الى سلطة عليا . ومن هنا تأتي صعوبة تقسيم البلاد على اساس جغرافي الى اقاليم معينة يخضع فيها سكانها الى زعيم واحد .

ولقد شعر سكان البلاد الأصليين بحاجتهم الى التجمع والالتفاف حول بعضهم ، ومثل هذا نراه اليوم في طريقه الى التحقيق في عدة مناطق (كحركة التجمع عند الأيونك *les ayong* ، من قبائل الفانغ *les Fang* ، في منطقة الغابون *Gabon*) .

وفي الجنوب لا تزال ذكرى بعض الدول ماثلة هناك : كمملكة الكونغو

وامبراطورية لوندا ولوبا وشونغو *Shongo* . فامبراطورية لوندا *Lunda* التي انتشرت في انغولا والكونغو البلجيكي يعود الفضل في تأسيسها الى صياد من قبائل لوبا *Luba* الذي ظهر في اوائل القرن السابع عشر ثم انتشر احفاده في الجهات الشرقية والشمالية .

وفي عام ١٤٨٢ اكتشف البرتغالي كاوا *Cao* مصب نهر الكونغو حيث يوجد حجر اثري يشهد على ذلك . كما ان كاوا هو اول رجل اوروبي استطاع ان يتقرب من (الماني كونغو *mani congo*) (أي ملك الكونغو) الذي كانت مملكته تمتد بين لانغوا *Loango* والكوانغو *Kwango* والكوانزا *Kwanza* . وكان حكام الممالك المجاورة له من اقربائه ومن اتباعه بنفس الوقت . وحوالي منتصف القرن السادس عشر استدعى ملك الكونغو (الفونسو الاول *Alfonso per* من المذهب الكاثوليكي) العمال الأوربيين والمبعوثين الدينيين والتجار . ولقد دامت مملكة الكونغو المسيحية ، مدة قرنين من الزمن ، انشأ خلالها عدد من الكنائس وحطمت آلاف الاصنام . وكانت السفن التي تحمل المنتوجات الصناعية الاوروبية ، تعود وهي محملة بالرقائق . ولكن في عام ١٧١٧ ، وأثر الحروب المحلية التي قامت في البلاد ، طرد السكان المبعوثين الاجانب وقطعوا كل علاقة مع البرتغال ، وأخذ النفوذ المسيحي منذ ذلك الحين يتقهقر وعاد السكان الاصليون الى عباداتهم وطقوسهم المحلية وهم أشد تعلقاً بالاصنام . وبعد مئة وخمسين عاماً من ذلك اصبح الصليب علامة وقائية *Prophylactique* ورمزاً للأجداد ، بالإضافة الى وجود بعض التماثيل الصغيرة في البلاد والتي بقيت ذكرى اولئك القديسين الاوربيين في القرن الخامس عشر والسادس عشر ؛ وبقي أيضاً في البلاد مجموعة من التماثيل الاخرى المليئة بالمسامير الصغيرة بحيث تذكرنا بعبادة كانت منتشرة الى وقت قريب في الريف الفرنسي وهذه العادة هي عبارة عن وصع دبوس صغير فوق صورة احد القديسين ، بحيث يضطر ذلك القديس الى الاستماع بروية الى رغبات من غرس الدبوس .

وفي عام ١٨٥٧ زار باستيان Bastian الألماني مدينة سانت سالفادور San Salvador عاصمة الكونغو قديماً ، فلم يجد فيها سوى اطلال أبنية حجرية ؛ ولكن لغة اهل العاصمة المنتشرة في كل مكان هناك ، كانت تستخدم لغة للاتصال بين جميع المجتمعات . واذا ما اتجهنا بعيداً الى الشرق نرى قبائل البالوبا التي يبلغ عددها /٥٠٠/ الف تقريباً ، تشغل المنطقة الواقعة بين درجة ٦° - ١٢° لخط العرض جنوباً وبين ٢٤ - ٢٩ درجة لخط الطول شرقاً .

ولقد قامت هناك ممالك كبيرة من قبائل البالوبا منذ القرن السادس عشر ، ولكن تاريخها بقي غامضاً ، كما ان بعض تلك الممالك قد بقي حتى اواخر القرن التاسع عشر .

واذا ما اوغلنا في جهة الشرق ايضاً في منطقة كاساي Kasai نعرضنا قبائل الباكوبا Bakuba أو الباشونغو (Bushongo)^(١) ، وتقسم هذه القبائل الى سبع عشرة قبيلة وتخضع كلها لملك مقدس واحد وتسكن البلاد التي تقع بين نهري سانكورو وكاساي وبين درجة ٤ و ٥ لخط العرض نحو الجنوب . ولقد جاءت تلك القبائل من ضفاف الاوبانغي Oubangui والشاري Chari . ولقد استطاع توردي Torday الذي زارهم عام ١٩٠٨ ، ان يتوصل الى معرفة اسماء الملوك الذين تعاقبوا عليها ويبلغ عددهم /١٢٠/ ملكاً . نذكر منهم شامبابو لونغولونغو Shambabo longo longo ، وهو اعظمهم ، بحيث قام في اوائل القرن السابع عشر باعادة تنظيم الحكومة ، كما حاول الغاء الحروب التي تستعمل فيها السهام ورمي السكاكين ، وينسبون اليه استعمال زيت البلح وادخال زراعة المانيوك Manioc والتبغ ، وصناعة النسيج بواسطة خيطان شجر الرافيا Raphi وكذلك تطريز ذلك النسيج بحيث يصبح منظره كمنظر الحمل ؛ واخيراً فان اقدم التماثيل الخشبية الصغيرة عند قبائل الباكوبا تمثل البطل العظيم شامبابو لونغو .

١ - يشتهر رجال هذه القبائل برمي السكاكين .

ترتكز جميع الممالك التي ذكرناها على نظام اقطاعي مع وجود اربعة او ستة ملوك للمقاطعات يحيطون بالحاكم العام للدولة .

ويصف لنا توردي *Torday* التنظيم الحكومي عند الباكوبا فيقول : يرأس الملك نيمي (*Nyimi*) وهو لقبه مجلس الوزراء الذي يتألف من رئيس وزراء ووزير للحرب مع الممثلين الاربعة لمقاطعات الدولة وامرأتين هما اختا الملك او ابنتاه . وتحمل واحدة منها لقب حارسة السلام *gardienne de la paix* ، بحيث تكون مهمتها اعطاء وتر القوس الذي يضعه دائماً حول رقبتها الى وزير الحرب في اول المعركة الحربية ولا تسترده منه الا عندما يعود السلام .

أما بلاط الملك فيضم عدداً كبيراً من الموظفين ومن ممثلين لجميع المهن *professions* والقبائل التابعة للملكة ومن بينهم الاقزام أيضاً . أما المؤرخ المكلف بحفظ الاساطير والتقاليد فهو ابن الملك والذي يفوق مركزه مركز بقية الامراء .

وعند اجتماع المجلس الكبير للدولة ، يجلس الملك فوق مصطبة يحيط به وزراءه ، وكذلك والدته فهي تأخذ مكانها الى جانبه فوق كرسي مرتفع . ويتمتع الملك نظرياً بسلطة مطلقة ، بيد ان سلطته هذه تحد في الواقع من قبل اعضاء قبيلته التي ينتمي اليها ، وهي قبيلة البامبالا *bambala* . ولا ينظر اليه اعضاء قبيلته كزعيم زمني مؤقت بل يرون فيه الحلقة التي تشرق فيها روح البطل بامبا *bumba* مؤسس القبيلة الأول ، الذي يمد الشمس بنورها ويرسل الأمطار لتسقي الأرض وتزيد خصبها . ولذلك فان كل اهانة توجه الى الملك فهي اهانة في نفس الوقت لجميع افراد القبيلة . ولقد كان على الملك ان لا يلمس الارض كيلا تلتهب من جراء ذلك » ولهذا نرى أحد الخدم يحمل الملك فوق كتفيه دائماً .

وأخيراً فإنا نجد نفس القوانين الملكية في افريقيا الشرقية ، عند الممالك التي تتبع نفس التنظيمات الاجتماعية .

كما أن التقارب في العناصر المدنية واضح أيضاً في أفريقيا الشرقية وإن مرّ ذلك إلى وجود طبقة أرستقراطية تسيطر على تلك المناطق منذ القديم .

٧ - أفريقيا الغربية *Afrique Occidentale*

تمتد منطقة الغابات على طول الساحل الغربي حتى ليبيا . وهناك انكسار أرضي واحد يفصل كتلة أفريقيا الوسطى عن كتلة غابات غينيا . ويطابق هذا الانكسار طريق بينوييه *Bénoué* ، الذي يؤدي إلى البحر الأبيض المتوسط بواسطة الكاوار *Kaouar* والفران *Fezzan* .

ومن الامتيازات التي تتمتع بها منطقة أسفل خليج غينيا ، أمطارها ونباتاتها المعتدلة ، بحيث تسمح بوجود حقول الذرة وأشجار البلح : ولقد شهدت هذه البقعة الواسعة من الأرض ولادة مدنيات عظيمة فيها في الإيفي *Ifé* والبينان *Bénin* والداهومى *Dahomey* . وإذا ما صعدنا قليلاً نحو الشمال نرى الغابة تنكشف ثم تنحسر أمام سهل واسع تتخلله بعض الأدواح من الأشجار .

كما تشكل المنطقة الوسطى من شاطئ الذهب وشاطئ العاج والقسم الجنوبي - الشرقي من غينيا أرضاً خصبة ، وتروى بشكل جيد ما بين شهر نيسان وشهر تشرين الثاني . وتشتهر هذه الأرض بزراعة بعض أوراق النباتات وأشجار الموز والقهوة والارز والحبوب .

ونرى من أعالي نهر الكازامانس *Casamance* حتى شمال الداهومي *Dahomey* ، ينتشر المثل القائل : « في المكان الذي تظهر فيه شجرة الكاريتيه *Karité* ، تبدأ حدود السودان » .

كما تنتشر في هذه المنطقة اشجار البومباكس *Bombax* والنيري *Néré* واللانجي *Lingué* فتغطي بظلالها النجيليات *Graninées* التي تقضي عليها النيران

كل عام قبل حلول الأمطار . وتسقط هذه الأمطار بغزارة من شهر نيسان حتى تشرين الثاني فتغسل سفوح الأراضي المرتفعة والصخور القائمة والأراضي المحرّاء المنخفضة .

وكما صعدنا الى الشمال نرى السهل الكبير يصبح أكثر وضوحاً إلا أنه لا يخلو من الأشجار التي تزداد في الأماكن المنخفضة الرطبة وتقلّ فوق الهضاب . كما نرى آثاراً لأشجار البوباب *Baobab* ، وشجر الآكاسيا وشجر التمر الهندي . وكذلك فترة الشتاء فهي حارة لظهور الشمس أثناءها . ولكن وجود خمسة أشهر من الجفاف يجعل الهواء أكثر صفاءً ونقاوة ، ويرتاد هذه المناطق ، أفراد قبائل البول *Peul* الذين يهتمون بتربية الماشية وخاصة الجاموس ، كما تشتهر هذه المناطق أيضاً بالذرة البيضاء وبالآراشيد *Arachide* .

ولقد قامت في تلك البلاد بمالك كثيرة تمتد من جنوب بلاد الأولوف *Ouolof* وبلاد السيرير *Sérère* حتى الهاوسا والبورنو شاملة معها الماندينج *Manding* والبا مارا والموسي *Mossi* .

وإذا ما اقتربنا من الساحل ، يبرز العشب الكثيف المملوء بالشوك ، وكذلك شجر البلح الذي يحتل مكان شجر البوباب *Baobab* . وهنا يحتاج الرمل كل شيء اذ تحمله الرياح البرية التي تجتاز الصحراء .

ولا يعتمد الفلاح في هذه الأرض إلا على بضع ساعات من المطر الغزير الذي يسقط بين شهر تموز وأيلول . أما مربو الماشية فيتفرقون في الشتاء في المناطق المليئة بالشوك والأعشاب ، وفي موسم الجفاف يعودون الى المناطق المتطرفة ، حيث توجد مواضع المياه من أنهار وآبار .

ونجد كذلك مناطق على امتداد واحد كهضبة السنغال السفلى والحوض النيجري وحوافي بحيرة تشاد : بحيث تشكل الفيضانات السنوية فيها الى جانب

رقعة المياه الواسعة أرضاً صالحة لزراعة الارز ولتربية الماشية ولصيد الأسماك .

ان جميع السكان على الساحل الغربي هم عبارة عن مجموعة من المزارعين يتوزعون في الأماكن التي تكثر فيها المياه لتساعدهم في اعمالهم الزراعية . كما نجد أيضاً رجال قبائل الديولا *Dioula* الذين يشتغلون بنقل البضائع ، فنراهم وهم يدفعون أمامهم الحمير التي تحمل على ظهورها الملح والكولاس *Colas* ، والتوابل وبعض البضائع الأوربية ؛ كما يسوقون أمامهم الثيران التي يتسللون بها عبر الحدود خلسة .

ولكن ما أن ينتهي فصل الشتاء حتى يعود الكثير منهم الى قراهم ليقوموا بأعمالهم الزراعية المعتادة . وحتى النجارون والحدادون وبقية أصحاب الحرف يمارسون الزراعة أثناء المواسم الزراعية . . حتى الآن نرى العامل المهني يجوار المراكز الحكومية ، يترك عمله عند نزول اول قطرة من المطر ليشتغل في حقله ، ثم يعود الى عمله بعد ان يقوم بجمع الأعمال الزراعية .

ويختارون حقولهم عادة في الأراضي الكثيرة الأشجار . وقبل مجيء موسم مطول الأمطار ، تقوم العائلة كلها بالأعمال الصالحة لتهيئة الحقل ، وهذه الأعمال من ضمن طقوسهم الخاصة ، ويأتي بعد ذلك العمل لقلع الأشواك والحشائش ، فيقطعون الأشجار ولا يتركون منها الا ارتفاعاً يساوي قامة الرجل مع الاحتفاظ بنوع هذا الشجر ولذلك فهم لا يحاولون اقتلاعه . وعندما تجف الأغصان والأعشاب التي قطعوها تضرم فيها النار لتصبح الأرض نظيفة وليستخدم الرماد كسماد لهذه الأرض . ثم يلقون البذور في باطنها بعد ان يحركوا سطحها بالرماد ، ويحاولون قلب الأرض جيداً بحيث يعلو التراب الجديد سطح الأرض . وتُعشَّب الأرض بعد زرعها مرتين او ثلاثاً من قبل النساء والأطفال ، وبعد التعشيب يبدأ موسم جمع المزروعات ، وهو عمل مشترك بين الجميع . وتكون خيرات الأرض وافرة في أول سنة ، فتعطي الذرة البيضاء والأراشيد او الارز بحسب المناطق .

اما في السنة التالية فلا تعطي الارض سوى محصول رديء ؛ وهكذا تخف الحاصلات عاماً بعد عام حتى تضعف الأرض ولا تعطي شيئاً . وعند ذلك وجب ترك هذا الحقل الى حقل آخر ترك منذ عدة سنوات بوراً كي يستريح ؛ وربما تضطر القبيلة الى نقل القرية كلها او الى اقامة مسكن احتياطي في الحقول المزروعة . وهكذا نرى وجود نوع من الزراعة المتلاحقة في حقل واحد حتى ينقطع هذا الحقل عن اعطاء اي شيء . واخيراً نستطيع القول بأن الطريقة الافريقية في الزراعة تتميز باستثمار الارض كلياً حتى آخر امكانية عندها . والى جانب الأراضي المزروعة نرى هناك بساتين الخضار التي توجد حول مساكن القبيلة ، وهي بساتين غنية لما يُلقى فيها من فضلات ومواد عضوية ؛ ولا يعتمدون في زراعتهم لهذه البساتين على السقاية . فهم يدفنون حبوب الذرة في ثقوب أرضية فوق التلال الصغيرة ، ويطمرون نبات التاروس Taros أيضاً كما يزرعون القلقاس ، وكل نوع من هذه المزروعات يبت جذوره في الارض على أعماق مختلفة . وتنضج الذرة في فصل الشتاء وتبقى حتى يحين موعد زراعتها من جديد ؛ وبعد ان يجمعوها من الارض يبدؤون فوراً بزراعة أدران النباتات الاخرى وهكذا تتتابع المحاصيل دون انقطاع حتى في فصل الجفاف . كما يستغلون في بعض الأحيان الاراضي المنخفضة التي تقع على مجاري الاقنية او السيول فينشئون البساتين التي تَعْلُ لهم البندورة والفلفل الأحمر والتوابل التي يضعونها في الحساء او مع الفاصوليا او الحمص او الباذنجان .

أما الحصول على السماد ، فيتم باقامة تفاهم بين الفلاح الأسود وبين أحد أفراد قبائل البول الذين يعتمدون على تربية الماشية ؛ اذ تُترك الماشية في الحقل أثناء فصل الجفاف وتبعد عنه أثناء فصل سقوط الامطار .

تناهض منتوجات السكان الاصليين المصنوعات الاوربية التي تلقى المقاومة بواسطة محاربتها بالدعايات هناك . وكان مجاهم الصناعاتي بسيطاً يقتصر على بعض المنتوجات المعدنية ولكنها غير كاملة وواضحة ، ولكن من الممكن تحسينها دون

ان نزيل عنها الطابع التقليدي لها .

ولقد ثبت للفلاح الاسود بعد عدة تجارب ، بأن حديد المحراث يسبب خدوشاً في الارض (الواقعة في المنطقة الانقلابية) اكثر خطورة من غيرها ، اذ يقضي على جذور الاشجار ويعرض مستقبل الارض للدمار . فالفلاح الأفريقي لا يستطيع ان يعتمد في زراعته على قطعة ارض واحدة ، لأن البؤس المنتشر يمنعه من ذلك . كما انه ايضاً لا يعرف الغربة ولا يحب ان يبتعد عن وطنه الا في حالات اضطرارية شديدة ؛ فهو يحب ان يعيش فوق أرضه مهما كانت هذه الارض .

هذا ونرى ميلاً شديداً لتوسيع حقول الأرز المغمورة بالمياه ، ويلاحظ ذلك في جنوب غينيا وفي منطقة الشبكة النهرية لأعالي نهر النيجر . بيد ان المناطق التي تشذ عن هذه الزراعة هي المنطقة الداخلية لسهول منطقة الانقلاب .

ومن التناقض الصريح ان يبحث المرء في البلاد الاستوائية عن وجود مناخ معتدل . فالمناطق الانقلابية في أفريقيا الأكثر صلاحاً لوجود السكان توجد على حدود الغابة الشمالية . حيث نجد قبائل الماند *Mende* والكيسي *Kissi* والتوما *Toma* والجيرزي *Guerzé* والمانون *Manon* في سيراليون وغينيا الفرنسية العليا ، تزرع الأرض التي تنتج لهم الأرز وشجر الموز والمانيوك والبلح الزيتي وأشجار القهوة وغيرها . ويمتد ذلك السهل بهم شرقاً الى بلاد الباولي *Baoulé* ؛ ثم يصل الساحل حتى اسفل خليج غينيا ، بحيث نرى جنوب بلاد داهومي ونيجريا يصبح بكثافة لا بأس بها من السكان تبلغ /٢٠٠/ شخص في الكيلومتر الواحد .

وهكذا فمثل هذه الكثافة تؤدي الى استغلال الأرض بشكل ضيق جداً بحيث تتتابع أنواع المزروعات في الارض الواحدة دون وجود فترات استراحة للأرض كما يحدث ايضاً ان تزرع الارض في آن واحد بنوعين من النباتات نوع زاحف ونوع منتصب ، كالأراشيد والذرة .

وفي جميع الاعمال الزراعية التي يقوم بها الفلاح الأسود ، من تعشيب وبذار وحصاد ، في جميع انحاء البلاد ، ترافقها طقوس معينة ، وهي وان اختلفت في بعض تفصيلاتها فانها تتفق في الهدف . وكون الفلاح الاسود يعيش في عالم واسع غير محدود ، فهو مضطر لمسايرة نموذج حياته ولتجنب غضب القوى المجهولة التي تهدده وتحيط به . فالأحياء قليلة تقوم بخدماتها مرغمة لكي لا يتزعزع توازن الحياة : ولذلك فان اقل حركة طائشة او جهل او نسيان ولو كان غير مقصود فان ذلك كافٍ ليجر على البلاد عقوبة الجفاف والجحافة والعقم او الموت . ومن هذه النظرة نرى اللجوء الدائم الى المقدسات وبناء المذابح والأماكن المقدسة وتقديم الضحايا الكثيرة الى الإله السماوي والى سكان هذه البلاد الأول والى كل الأجداد او لواحد منهم ، وبصورة اخص لتلك الأرواح ولتلك القوى العظيمة التي تتوزع في الطبيعة والتي يشعر نحوها سكان البلاد بشعور غير واضح المعالم تماماً . فليس عندهم من انفصال بين الروحانيات والدينيويات او بين التنظيم الاجتماعي والتنظيم الديني .

كما ان تكتلهم الاجتماعي يقوم على فكرة القرابة ؛ فأفراد العائلة الذين ينحدرون من اصل واحد من جهة الأب او من هم في خط عائلي واحد يشكلون مجموعة مستقلة يشرف عليها من هو اقدمهم سناً ، الذي يحفظ طقوس عبادات الأموات ، ويشرف على الارث العام ولا يملكه . وتنتقل السلطة من الأخ البكر الى الأخ الثاني او بحسب بعض المجتمعات من الأب الى الابن او من الخال الى ابن اخته .

اما الاعتراف بالبنوة التي تأتي عن الخط الأمومي فهو موجود عند قبائل الأولوف *Ouolof* وقبائل السيرير *Sérères* في السنغال وقبائل البول *Peul* الغير مسلحين وعند بعض السكان في الغابات .

وكذلك فالتجمع بين الافراد يضم عادة عائلتين او ثلاثاً ، ويقسم هؤلاء

الافراد الى مراتب بحسب العمر . وأثناء انسحاب المجموعة الى الغابة يقوم بعض البارزين منهم بتعليم الأولاد والبنات على انفراد قواعد المجموعة الدينية والاجتماعية . وأما مدة التعليم فتختلف من مجموعة الى أخرى ؛ فهي تبلغ السبع سنوات كما هي الحال الآن في اعالي غينيا وشاطئ العاج . كما يتعرض كل فرد لكي يصبح عضواً عاملاً في المجموعة ، يتعرض هذا الى نظام دقيق وتجارب جسدية قاسية . وفي بعض الأحيان يتعرض الفرد الى تغييرات جسدية كاللحتان او استئصال بعض اعضائه الجسدية او تشريط جسمه او استئصال بعض الاسنان او كلها وهي علامة من علامات الصبر . وفي هذه المجموعات السرية فان سرها يكون في تناول الجميع ما عدا النساء والاطفال . كما ان اغلبية الافراد يكتفون بما يتلقونه من هذه التربية الاجتماعية والدينية . ولكن نرى بعضهم يتضلعون في هذه العلوم التربوية حتى يصبحوا شيئاً فشيئاً معلمين يسهرون بكل أمانة على طقوسهم . ويمارس المعلمون عملهم وهم مُقنَّعين أو مبدلين شكلهم . كما يجتمعون لاتخاذ قراراتهم النهائية برئاسة من هو اكثرهم علماً . والذي اختارته ارواح اجدادهم القداماء . اذ انهم يخشون سطوة اجدادهم الحفية لأن ارواحهم على اتصال دائم مع العالم الخارجي . ويصادف احياناً ان تتخطى احدى المجموعات حدودها المحلية ، بحيث يصبح معلموها مشهورين في مناطق اخرى اذ يبعثون الى تلك المناطق بالرسائل السرية التي تُعرف باسم سيمو *Simo* في غينيا وبورو *Poro* في سيراليون والسودان وشاطئ العاج وكومو *Komo* عند قبائل الماندينجو وأورو *Oro* عند قبائل البينان .

أما دور الجمعية السرية فهو تطبيق احترام التقاليد وتوطيد السلام في القرية وذلك بعقاب المذنب الذي تجري محاكمته سرياً او قتله اذا اقتضى الأمر . ولكن يحدث احياناً ان تشذ هذه الجمعية السرية عن أهدافها الاجتماعية ، فيصبح هدفها الوحيد توطيد السلطة ولو بواسطة نشر الرعب . ومن هذه الجمعيات جمعية الرجال - الفهود وجمعية الرجال - التامسيح .

وعلى كل عضو جديد في مثل هذه الجمعيات ان يقدم لرفقائه جثة انسان ؛

ويجب ان يُقتل الانسان على حين غرة وعلى قاتله ان يخذش جسد القاتيل بمخالب مصنوعة من الحديد مقلداً بذلك مخالب الطير الجارح ، ثم يرفع من جسمه عدة اعضاء يأكلها المتآمرون معه اثناء اجتماع يعقدونه ليلاً في الغسابة ؛ وفي بعض الاحيان يتم القتل بصورة تخيلية ، اذ يقوم الساحر بأكل قلب او كبد الانسان الضحية دون ان يكون له وجود مادي حقيقي ، الا انه يتخاذل رغم ذلك امام قوة الساحر الذي يراه وحده . وانه من الصعب جداً تفسير مثل هذه الأعمال او الحكم عليها حكماً صحيحاً والتي يدخل فيها السحر والشعوذة ، في نفس الوقت الذي تبدو فيه العملية غير منظورة بالنسبة للاعضاء .

والحقيقة هو ان السلطة في مثل هذه المجتمعات الديمقراطية في مظهرها ، تعود كلها تقريباً الى الشيوخ المسنين حراس التقاليد ، المنفصلين عن الافراد، وفي نفس الوقت يمثلون ارواح الأجداد .

وكذلك فالقرية تكوّن وحدة ادارية يشرف عليها رئيس واحد بالاشتراك مع مجلس من الأعيان .

وأما فن البناء فيختلف عند الجماعات ، في السودان الغربي ، والتي عانت تأثيرات شتى من ممالك كبيرة : كغانا ومالي والسونجي . فالطبقة الاجتماعية هنا تبدو واضحة جداً في الحكم: فزعيم المقاطعة يقوم بتمثيل الحاكم العام للمنطقة كلها وله بنفس الوقت رتبة في البلاط الذي يعتبر مركز الاشعاع بالنسبة للدولة كلها . كما يشكل اتباع الدولة هرمياً يعلو بعضه فوق بعض وذلك بحسب قوة العلاقة التي تربط كل تابع مع الحاكم العام . اما تأثير الاسلام فواضح وخاصة في الحالات التي تخص المرأة التي لا كيان لها في المجتمع . بينما يبقى العمل في الارض مشتركاً بين الجميع . هذا بينما يبقى عمل الأرض مُنجلاً بالنسبة لمجتمعات قبائل البول — السود في منطقة فوتاتورو ، وفوتا ديالون وفي سوكونو وآداماوى .

. Adamawa

اذ نرى هنا مجتمعا أريستوقراطياً عاطلاً عن كل عمل الا ما يتعلق بالمسائل الحربية ، كما يعتبر العمل اليدوي كالخزف والجلد والحياكة والصباغة وضيعاً ولذلك يقوم عليه جماعة من طبقة وضيعة ايضاً . اما الحداد فله مكانة خاصة فهو تارة مخيف وتارة محتقر واحياناً الاثنتين معاً . فان جد الحداد هو غالباً ما يمثل ذلك البطل الذي حمل الى غيره معرفة المعادن ومختلف الصناعات .

ويأتي في آخر درجات السلم الاجتماعي الموسيقيون والسحرة الذين هم عبارة عن مشعوذين ومتطفلين على الحاكم لا هم لهم الا انشاء المذائح له .

ولقد كانت التنظيمات السياسية في المجتمع الواحد تتأرجح في مدى قرون طويلة من نظام القرية المستقلة الى نظام المملكة الاقطاعية . وعندما وصل الاوروبيون الى افريقيا فان حفيد بور مالي *Bour mali* الذي كانت مملكته انموذجاً للدولة الاقطاعية كما وصفها لنا ابن بطوطة ، نراه بعد اربعة قرون عبارة عن زعيم قرية فقط . ومن كل التنظيمات السياسية التي بقيت ثابتة المجموعة التي تعتمد على القرابة الدموية من جهة الأب والتي تعيش على أرض واحدة .

ولكن احتلال مالي من الوجهة السياسية وكذلك بلاد الماندينج قد جعل في هذه المناطق مزيجاً متعارضاً من السكان فهناك قرى الماندينج والستوكولور والبول والساراكولي *Sarakolé* . فهناك قرية مسلمة وهناك قرية تعارض الاسلام ، كما نجد قرية تهتم بالماشية واخرى لا تعرف الحليب . وكذلك نجد الكوخ الدائري بسقفه المغطى بالقش الى جانب البيت المكعب الشكل ذي السقف العادي . ولكن قبائل الماندينج احتفظت بنوع من الارستقراطية بحيث كانت تضم رؤساء مقاطعات أغلبهم من المسلمين بينما مجموع البلاد ينتمي الى المذهب الآنييميسم *Animisme* (١) .

١ - مذهب يؤمن بأن النفس الانسانية هي السبب في كل الحوادث الاساسية في الحياة .

كما نجد أيضاً قبائل السونجي التي تضم عشائر السونري والسونجوا... الخ يظهر عليها نفس التعقيد في السلالة . لان الارستقراطية التي حكمت كل وادي النيجر من دجيني *Djenné* الى الجاو *Gao* قد امتزجت بعناصر من قبائل التواريج والعرب والمراكشين – الاسبانيين (الآرما *Arma*) وقبائل الساراكولي *Sarakolé* .

أما الطبقات الوضيعة فاصلها من دجيرما الواقعة في الآفال *aval* . كما ان قبائل الدنوي في شمال داهومي هم من اقرباء قبائل السونجي . ولقد ظلت قوافل السونجي تجلب الملح من صحراء تاوديني *Taoudeni* وتحمله الى كل الاسواق السودانية .

وفيما يتعلق بقبائل الموسي *Mossi* البالغ عددهم نحو مليون واربعمئة الف ، فانهم يشكلون دولتين عاصمة الاولى أواغادوغو *Ouagadougou* وأواهيفويا *Ouahigouya* . ويقوم على رأس كل دولة حاكم طاغٍ يدعى موغور نابا ، يفرض على اتباعه احتراماً دينياً تقريباً ويحيط به وزراؤه . ولقد استطاعت الارستقراطية الحاكمة عند الموسي *Mossi* ان تفرض الاستقرار الداخلي وان تحمي الدولة ضد كل اعتداء خارجي . فالنبلاء في الدولة يؤلفون المجموعة الادارية الحاكمة ، فهم رؤوساء للقرى والمقاطعات والمناطق ، ويعيش تحت سلطتهم مجموعة من الفلاحين والعمال الوضيعين : كالحداين الذين تعمل نساؤهم في صناعة الخنزف والحلي والنجارة والصباغة وغيرها ، اما تربية الماشية فيقوم بها قبائل البول وكذلك التجارة فهي بيد اختصاصيين .

ولقد عرف الموسي *Mossi* ممالك الماندينج والسونجي واستطاعوا المقاومة والاستمرار مع نقل بعض التنظيمات الادارية والاجتماعية من اعدائهم . ولا تزال مناطقهم حتى اليوم مأهولة بالسكان ، كما ان اكثر من خمسمائة الف منهم يعيشون خارج حدودهم وخاصة في المناطق المجاورة للشاطئ الذهبي .

واخيراً يأتي دور قبائل الفون *Fon* في داهومي واليوروبا في جنوب نيجيريا، والذين استطاعوا السيطرة على تلك البلاد بطريقة عجيبة .

كما ان ملك آبومي *Abomey* ذو سلطة مطلقة وهو وحده الذي يملك ارض الدولة كلها . اما اعضاء العائلة المالكة فيتمتعون بامتيازات شرعية ، بيد انهم بعيدون عن ادارة البلاد . فالملك يسمي كبار موظفيه الذين يبلغ عددهم سبعة، ويظهر هؤلاء مع زوجاتهم في الاحتفالات الرسمية . ولقد كانت البلاد تحكم سابقاً من قبل زعماء القرى والاحياء . كما كان هناك طبقات اجتماعية كرجبال القانون و'حجّاب الملك ثم الضباط وكل طبقة لها نظام خاص ثم يأتي بعد تلك الطبقات العوام وهم طبقة الفلاحين ومن بعدهم طبقة المحكومين الذين حرّموا من حقوقهم المدنية واخيراً الخدم والرقائق . ونرى الى جانب هذا المجتمع الطبقي وجود المعبد الكبير الذي يضم عدة عائلات للآلهة ولكل عائلة وظيفتها المحددة . كما ان الاختصاص في الدين والطقوس عظيم للغاية بحيث ان كل فرد من داهومي *Dahomey* ينتسب الى فرقة دينية معينة ويقوم بالطقوس التي تخص إلهاً واحداً فقط .

ونجد في تصنيف الآلهة مبدأ الازدواج فهناك :

ليزا / مافو *Lisa / mawu* التي توافق الشرق / الغرب الشمس / القمر
Soleil / Lune ، رجال / نساء *hommes / femmes* ... الخ . وفي بعض الاحيان نرى مثلاً ليزا / مافو ترمز الى وحدة الجنسين المذكر والمؤنث .

ويعتقدون بأن الخالق قد قسم الكون بين اولاده الاربعة عشر ، فأعطى الى كل ولد منطقة معينة : كالسما والارض والمطر ... الخ . وكذلك فقد قسم الآلهة الاربعة سلطتهم بين اولادهم الذين جاؤوا بعدهم : فالمطر الغزير ، والرعد ، والصواعق ... كل واحد منها . يعود الى اله مختص بها . كما نضيف الى هؤلاء الآلهة آلهة الشعوب التابعة لدولة داهومي : مثل دا *Da* اي الاعمى ، التي ترمز الى

حركة الحياة والى كل ما هو طري ورطب ، وكذلك كسيفيوزو *xovioso* اي الصاعقة . ولكل مجموعة من الآلهة التي يطلق عليها اسم فودو *Vodu* ، عباداتها وطقوسها الخاصة وكذلك معابدها . ولها ايضاً كهانها ومعلموها من الرجال او النساء . أما الاموات المقدسين (*Tovodu* توفودو) فهم وسطاء بين الاحياء والآلهة أما الاموات من الذين يحملون الدم الملكي فهم يشكلون مجموعة متميزة ولا يقدسهم الا الامراء الاحياء الذين لا ينتسبون الى أية مجموعة مما ذكرنا .

وتقوم الاحتفالات الدينية في مواعيد تحدد قبل اوانها . فعند موت احد العلماء ينزل الإله في الاحتفال على رأس من يأتي بعد ذلك العالم وعندها يدخل هذا في حالة من الارتعاش الشديد .

أما مدة الاعتراف بالأولاد وادخالهم في القبيلة فهي ثلاث سنوات بالنسبة للبنات وتسعة اشهر بالنسبة للصبيان . والذي تجب ملاحظته هو ان جميع الاحتفالات والطقوس الدينية العامة تتعارض مع الطقوس الخاصة الذي جاء اكثرها من الخارج . وأخيراً فكل ما يقومون به من عبادات ظاهرة وطقوس مختلفة يفسر لنا نظرتهم البعيدة لعالم غير هذا اكثر غنى وعظمة . بيد ان الدراسة العميقة لما يقومون به لا توصلنا إلا الى حركات رمزية تعبيرية تضم بعض الكلمات والضحكات وغيرها التي لا تعبر عن شيء .

وهكذا فما نراه اليوم يقوم به جماعة حديثة العهد ، وليس الأقدمون كما يظن بعض القراء ، ومثل هذا ليس بغريب عن القارة السوداء .

٨ - الصحراء *Sahara*

ينتمي سكان الصحراء الى سلالات متعددة ويتكلمون لغات متنوعة ، ولهم

ظابع حضاري واحد يوجه اهتمامهم الشديد بتربية الجمال التي تستخدم في الحرب والنقل ، اما الدين الرسمي فهو الاسلام وان كان فيه بعض الشوائب .

هناك شعب المورس *Maures* الذي يشغل القسم الغربي ؛ في موريتانيا والسنغال والسودان وعددهم حوالي /٤٥٠/ الف يثفرون الى قبائل متعددة . ففي الساحل نرى مربي الماشية يدفعون بقطعان الثيران عندهم الى الشمال أثناء فصل الأمطار والى الجنوب أثناء فصل الجفاف . وفي المناطق الشمالية البعيدة تعيش القبائل البدوية التي تعتني بتربية الجمال وهم من أصل بربري زيناغا *Zenaga* ، وفي أواخر القرون الوسطى استطاعت قبائل حسان *Hassan* العربية ان تجبر هؤلاء البرابرة على ترك الخمار ولكن دون ان تختفي كل التقاليد البربرية وخاصة حرية المرأة الواسعة .

أما الحكم الطبقي في المجتمع فكان يبدو واضحاً بوجود الارستقراطية العسكرية التي تتمتع بها قبائل حسان *Hassan* العربية وذلك بسيطرتها على كل القبائل الاخرى .

أما الواحات فيقطنها جماعة من المرابطين الذين يمتازون بثقافتهم وتجارتهم وبرجوازيتهن ، ويسكن معهم بعض الفلاحين السود من الرقيق او المعتوقين ويطلق عليهم 'سم الهراطينين *Harratin* .

أما الواحات القديمة الجنوبية كعطار *Atar* والأوالاتا *Oualata* والنما *Nema* فقد كانت معقلاً للمسلمين ، وحيث ينطلق منها بعض المرابطين الذين كانوا يعملون في تجارة التائم وغيرها او يتقربون من الرؤساء المشهورين . وغالباً ما يقصدون من عملهم التجارة قبل ان يكونوا رجال دين في أعمالهم ولذلك نراهم يتابعون الطرق التجارية كطريق كولا *Cola* الذي يوصلهم الى الغابة في شاطئ العاج . ونرى شعب المورس يقوم بعلاقات مع جنوب مراکش ، ولا يزال طريق القوافل القديم الذي يصل الى ممالح (ايدجيل *Idjil*) تسير القوافل عليه حتى

الآن . ولكن الدين الاسلامي في الموره *Maure* قد نُجمد منذ أيام المرابطين .

أما قبائل الطواريج التي جاءت من الشمال فيبدو أنها لم تدخل الصحراء الا في اول العصر الميلادي . ولقد وصلوا الى النيجر حوالي القرن السابع عشر . ويبلغ عددهم اليوم في السودان والنيجر أربعمئة الف زيادة عما هم عليه في الصحراء .

ونرى عند التواريج في منطقة الاحجار والآزجير ومنطقة الآير *Aïr* وكذلك في الجنوب الغربي ، أن لكل جماعة منهم زعيماً يدعى (أمانوكال *Amenokal*) يتم انتخابه من قبل رؤساء القبائل ، ان سلطته ليست واسعة ، كما أن كل قبيلة تملك بعض الارقاء ، الى جانب وجود طبقة النبلاء *Imachek* ايماشق ، والاتباع ايمجاد *Imgad* . وفي مقابل حماية النبلاء للاتباع يقوم هؤلاء برعاية قطعانهم من غنم وماعز وجمال . أما غذاؤهم فيتكون من التمر والحليب والسمن والخبز وخاصة من الحبوب المطبوخة كالقمح والذرة التي يشرف على زراعتها الارقاء السود في الواحات ؛ وكذلك اللحم فهو غذاء فاخر عندهم . وهناك الحدادون الذين هم من الافريقيين السود الضائعين ؛ وأما الخيام فقد كانت تصنع قديماً من جلود الماعز والغنم وتثبت على أوتاد طويلة ، بينما نراها اليوم تصنع من وبر الجمال أو الماعز ، وهو ما أخذه عنهم البدو الرحل فيما بعد .

أما في منطقة الآير فنرى ظهور الاكواخ النصف دائرية المصنوعة من الحصر والمغطاة بالقش . أما الايمجال *Imgal* التابعين للتواريج فيسكنون الوديان المزروعة ويستعملون البيوت ذات السقوف التي تشبه البيوت في مصر وافريقيا الشمالية والسودان .

أما لبس الخمار عند الرجال فهو عادة يتمسكون بها ، فهناك الخمار الأبيض للأفراد العاديين والخمار الأسود للنبلاء . كما ان لبس الخمار لا يحوز قبل بلوغ سن الخامسة والعشرين . اما سلاحهم فهو السيف ذو القبضة المتصالبة والرمح والخنجر .

واله رغم وجود حكومة تعتمد على السلطة الأبوية وهو ما نراه عادة عند القبائل العربية ، فان النساء رغم ذلك يتمتعن بحرية تامة . فهن يقمن بنصيب من النشاط العام ، كما ينتقين أزواجهن ، كما لا يوجد هناك تعدد في الزوجات . وهن لا يضعن الحمار على وجوههن . كما ان وضع الاولاد الاجتماعي يتحدد بواسطة الأم .

ورغم كونهم مسلمين ، فان التواريج لا يزالون يحتفظون بمعتقدات خاصة ينكرها الاسلام . وكذلك لغتهم (التاماشيك *Tamachek*) فهي عبارة عن لهجة بربرية ؛ أما لهجة (التيفينار *Tifinar*) فهي الوحيدة التي كانت منتشرة بين كثير من القبائل اما اليوم فلا وجود لها الا عند النساء الطاعنات في السن .

ومن ناحية اخرى فان هدوء الصحراء ومنع الغزوات كانا ضربة بالنسبة للتواريج اذ منعت عليهم رزقهم . وان من لم يستطع منهم ترك حياته القديمة التي تعتمد على الغزو والحروب ، لم يتمكن من التركيز والعمل في الارض ، لأن مثل هذا يجلب العار لاجدادهم ، ولذلك نراهم اليوم في طريقهم الى الانقراض .

وهناك ايضاً قبائل التوبو *Toubou* القليلة العدد التي تسكن في منطقة الآير *Aïr* والسهول المجاورة التي تمتد من الفزان *Fezzan* الى بحيرة تشاد ، وتنقسم الى قسمين (التيدا) في الشمال (والدازا *Daza*) في الجنوب . وترتفع الجبال في هذه المنطقة الى /٣٠٠٠/ م ، ومثل هذا الارتفاع الى جانب الوسط الصحراوي يسببان فروقا كبيرة في الحرارة . فالحشاء قارس جداً ولا يسمح الا بقيام زراعات بسيطة في الوديان الضيقة ، ولذلك تنتشر المجاعة وتهدد السكان مما يضطر كل انسان ان يملك عدة حقول زراعية في مناطق متفرقة ليستطيع مقاومة الجوع .

كما ان قوافل التوبو تذهب من واحات ليبيا الى ضواحي بحيرة تشاد . اما الداز في الجنوب فقد امتزجوا بالسود من سكان السودان ثم استقروا على تربية

الثيران في تلك المنطقة . وأخيراً فان التوبو هم أعداء للتواريج بصورة دائمة وقد استطاعوا ان يعطوا الى بلاد كانيم *Kanem* قوتها العسكرية في القرن السادس عشر . واما دينهم الرسمي فهو الاسلام ،

وفيما يتعلق ببدو الصحراء الليبية فان كل مهم يتجه الى الاعتناء بالجمال واعداد القوافل . واذا ما كان المستوى المادي يبدو عندهم مرتفعاً بفضل الجهود التي يبذلها الرقيق لهم في الواحات ، فان نوع الحياة لا يختلف كثيراً عن سكان الصحراء الآخرين .

هذا ، وان دخول الجمل الى تلك البلاد في اول عصرنا هذا قد اعطى للبيض فرصة السيطرة المادية التي تفسر لنا تدهور وضع سكان الصحراء من السود اكانوا رقيقاً ام معتقبن ، كما تفسر لنا ايضاً انسحاب السكان القدماء من قبائل البول والسود من تلك البلاد .

ولقد استطاع سكان الصحراء البدو ان يتركزوا وان يمتزجوا اخيراً بعد فترة من العداء الطويلة . ومنذ ذلك الحين فقد كانوا مهددين بسبب قلة عددهم بابتلاع السود لهم الذين يحيطون بهم . وربما يكون صحيحاً ما يحدثنا به عدد من الأساطير عن قيام ممالك سودانية أنشأها البيض ثم جاءت بعدهم الى الحكم عائلات من السود فاحتلت مكانهم .

٩ - السودان الشرقي *Soudan Oriental*

تقع هذه المنطقة من السودان شرقي بحيرة تشاد وهي منطقة نصف صحراوية وتسكنها قبائل من الرحل . فهناك قبائل الكبابيش *Kababish* في كوردوفان والبيدجا *Bedja* على ساحل البحر الأحمر ، الذين يعيشون حياة تذكرونا بحياة سكان الجزيرة العربية الساميين .

وأن ندرة الأمطار تسمح على الأقل بتربية الجمال والثيران والغنم ، والماعز والحصان ؛ وحياتهم هذه تشبه حياة البدو في الصحراء وحياة مربي المواشي في افريقيا الشرقية . كما ان البحث عن المراعي يؤدي الى تبعثر القبائل فترة من الزمن ثم يجتمعون بعد ذلك حول موضع من المياه . اما خيامهم فهي من وبر الجمال الذي تصنعه النساء على نول لا يزال موجوداً عند القبائل البدوية العربية حتى الآن . كما يشرب الرجال حليب النوق وتشرب النساء حليب البقر ويشرب الاولاد حليب الماعز ، وكذلك فلهنم الغنم هو غذاء عادي ، بيد انهم لا يذبحون الجمل الا في الاحتفالات فقط . ولقلة وجود الحبوب عندهم ، فهم يحصلون عليها من جيرانهم . ونجد عندهم العصبية التي تجمعهم بحيث تجعل كل فرد من افراد القبيلة في حالة حرب مع القبيلة الأخرى اذا ما قُتل احد منها . كما ان السلطة الأبوية الواسعة تعطي الحق للوالد باصدار احكام حتى الموت . وأما المرأة الزانية فيقتلها أخاها وليس زوجها ، لأن اخاها هو المسئول عن أخذ الثأر في مثل هذه الحالة . والى جانب هذا فهناك آثار قديمة للسلطة الأمومية كانت موجودة عندهم . بحيث ان الصهر يسكن عند أهل زوجته في السنة الأولى من زواجه كما ان الحماة يمكنها الاعتراض على ذهاب ابنتها بعد الزواج من عندها . أما تحديد القرابة عندهم فيسمح مثلاً بالزواج من أبناء العم الذين هم في خط واحد ، ومثل هذا الزواج محرم عند السود في افريقيا . وكذلك فنسأؤهم لسن محجبات الا انهن يغطين أفواههن امام الغريب . وكذلك الاطفال فهم يُختنون بين السادسة والتاسعة من عمرهم . كما تتحمل البنات بين الثالثة والسادسة من العمر عدا بترشي من اعضاء جسدها عملية معاكسة قبل بلوغها سن الزواج (عملية خياطة) .

واخيراً فان قبائل الكبابيش تنتمي الى الدين الاسلامي ، ويتميزون بحمل التائم الجلدية التي تحوي بعض آيات من القرآن او شعر أحد الأولياء الذين يستطيعون بقوتهم الخارقة ان يكشفوا عن اللصوص او ان يعثروا على احد الجمال الضائعة . كما يدقنون موتاهم باتجاه مكة . ثم يقام احتفال بعد عام من الوفاة فيذبحون في هذه المناسبة ناقتين يأكل لحمها الجميع ما عدا اقرباء المتوفى .

ونستطيع القول بأن عاداتهم تحمل الطابع الاسلامي بيد انها ليست بارزة كما يجب ، الا انها تراث يضاف الى تراثهم السامي القديم .

١٠ - افريقيا الشمالية *Afrique du Nord*

لقد حافظت المجموعات البربرية في افريقيا الشمالية على طابع حياتهم الخاص الى جانب لغتهم التي لم تستطع اللغة العربية ان تزيّلها ؛ كما ان الدين الاسلامي نفسه لم يرسخ كما يجب في قلوبهم .

يقول (ج . ويلريس *J. Weulresse*) : « يكون شمال افريقيا منطقة الرجل الفلاح *fellah* التي تتوافق تقريباً مع المنطقة التي يغلب فيها الطابع العربي الاسلامي : فالعربي الاسلامي والفلاح يبدوان غير منفصلين ، لأن الثاني هو من نتاج الاول الذي جاء من الشرق الادنى ؛ فمصر والمغرب يمثلان اذن انموذجاً من الانسان الريفي متشابهاً رغم الفوارق التاريخية والجغرافية ، بينما يختلف هذا الانموذج عن غيره من البلاد المجاورة له . »

ف فوق سفوح الجبل الكبير حيث اقيمت المصاطب الكبيرة التي تسندھا الحجارة ، نرى الجماعات البربرية في الجزائر والمغرب مع الجماعات المستعربة الاخرى يزرعون تلك المصاطب بالقمح والشعير وغيرهما ، يستخدمون في زراعاتهم نفس الادوات التي تستخدم في بلاد البحر الابيض المتوسط ، وهي : المحراث والمنجل ، وفي بعض المناطق المحافظة (كالأوري *Aurès*) نرى استعمال النورج الذي هو عبارة عن خشبة عريضة يغرس فيها قطع من حجر الصوان لدراسة القمح . أما منطقة (الكابيلي *Kābylie*)^(١) فهي اكثر استعداداً لزراعة الاشجار كالزيتون والتين واللوز والعنب او البلح . كما ان تربية الاغنام والماعز

١ - منطقة من الجزائر تقع شرق مدينة الجزائر .

تلعب دوراً كبيراً أكان ذلك عند البدو الرحل أو البدو نصف - الرحل أو سكان القرى والمزارع . وهم يستخدمون الحليب وزيت الزيتون والسمن في اطعمتهم وخاصة في الحبوب المطبوخة كما يقيمون ولائم (الكوسكوس *Couscous*) أو البرغل حسب لغة أهل الشام؛ وهو مستخرج من القمح والشعير.

أما البيوت فهي مربعة الشكل ، وتبنى جدرانها من الحجارة والطين أما السقف فيصنع من الأخشاب الطويلة ثم تغطى بالقش والطين . أما في الجنوب فيستعملون اللبن الترابي بدل الحجارة كما هي الحال في السودان . أما المآذن فهي إما مربعة الشكل أو سداسية (على الطابع المراكشي) ، بحيث تتعارض مع الطابع التركي الذي يوجد في تونس ، والتي هي ذات شكل اسطوانى ضيق . وتقوم النساء البربريات بأعمال النسيج على أنوال عمودية فيصنعن السجاد والبرانس *Burnos* . أما الرجال فيستعملون النول الأفقي ويصنعون بواسطته الأقمشة العريضة الناعمة . أما صناعة الجلد القديمة التي لا تزال موجودة عند التواريج فقد طرأ عليها تغييرات من قبل العمال العرب .

وفما يتعلق بالتنظيم السياسي فإن بلاد البرابرة تركز على السلطة العائلية من جهة الأب ، بحيث تسكن كل عائلة في دسكرة ؛ كما يحدث ان تجتمع ثلاث أو أربع دساكر لتكون قرية صغيرة ؛ كما ان اجتماع عدة قرى متجاورة يكون منطقة واحدة . وفي وسط هذه المنطقة يقوم السوق العام .

أما المجلس العام الذي يحمل السلطة السياسية في المنطقة الواحدة فيضم زعماء العائلات كلها .

لقد استولى الاسلام بالسيف على البرابرة ، بيد انه لم يستطع ان يحو كل ذكرياتهم عن ديانتهم القديمة بحيث بقيت بعض طقوسها حتى الآن ، كالنار التي تضرم في الصيف عند بلوغ الشمس أبعد نقطة في السماء وذلك في ٢٤ حزيران ، وهذا ما يحدث في منطقة الريف الجبلية اذ يقوم الناس بالقفز فوق تلك النار .

وكذلك يوم العاشورا *Achoura* وهو اليوم العاشر من شهر محرم ويوم عيد رأس السنة وعيد الاطفال والاموات ايضا . وكذلك علم التنجيم وشراب الحب السحري *Philtre d'amour* لا يزالان عند البرابرة . وفي كل مكان ايضا نرى الاعتقاد (بضربة العين *Mauvais œil*) بحيث يتقون ذلك بحمل (كف فاطمة *La main de Fatma*) وهو عبارة عن شكل يد ذات خمس اصابع ممدودة . اما حضارتهم فهي مزيج ، من عناصر بربرية وسامية واسلامية ، كما تصطبغ بتأثيرات مصرية وفينيقية ويونانية ورومانية ، بحيث ان عمليات الثقب والجرح في الجمجمة عند سكان الأوري *Aurée* وجزر كناريا تذكرنا بالعمليات الجراحية المشوبة بالسحر في اوروبا الغربية في ما قبل التاريخ .

الفصل الثاني

أفريقيا في علاقاتها مع العالم الخارجي

إذا ما قدّر لنا ان ننظر الى كتلة القارة الافريقية على خارطة للكرة الارضية ورأينا المسافات البحرية التي تفصلها عن امريكا وآسيا لرأينا كيف ان مثل هذا يفرض على افريقيا ان تكون وحدة جغرافية مستقلة . والواقع فان افريقيا كغيرها من القارات لا تشكل وحدة مفصولة تمام الانفصال عن العالم . وكذلك فالبلاد التي تحيط بالبحر الابيض المتوسط قد جذبت اليها الانظار منذ زمن طويل ، كما لا نرى فرقاً كبيراً بين اسبانيا وأفريقيا الشمالية وبين البلقان وآسيا الصغرى .

كما ان الصحراء لم تكن حتى اواخر القرون الوسطى حاجزاً بل كانت طريقاً كبيراً وممراً لنفوذ دول المتوسط التي وصلت الى افريقيا الغربية . ولقد ذكرنا سابقاً كثيراً عن تأثير مدينتي المتوسط التي لا تزال آثارها تزداد ظهوراً يوماً بعد يوم . وباستطاعتنا ان نضيف أيضاً الى تلك الآثار وجود التقارب بين الزخارف (الاتروسكيه *Etrusques*) والسردينية في العصر البرونزي وبين الادوات الحديثة في شاطئ الذهب والكامرون . كما نذكر ايضاً صور مصارعة

الثيران في كنوس *Cnosse* (في كريت) ، التي هي نفسها الموجودة في شمال نيجيريا . وأخيراً فان كل الاطلس الصحراوي كان يسكنه جماعة الكهوف *Troglodytes* . كما ان ترتيب الكهوف والخابىء الصخرية لاستخدامها كمساكن وعنابر هو نفس الترتيب الذي نراه ابتداءً من المغرب حتى مصر والاورى *Aurès* والسودان . وهذا ما يوحي بوجود عادات وحياة متطابقة او على الاقل بوجود وحدة حضارية واحدة في بعض المناطق خضعت لنفس التأثيرات الحضارية التي جاءت من الخارج . وهذه التأثيرات الحضارية واضحة المعالم وقديمة ايضاً . وبما يذكر هو تلك المساحات المائية الغزيرة التي كانت تغطي المناطق الصحراوية اليوم والاراضي الليبية والنوبية . ولقد ترك انسان ما قبل التاريخ فوق الصخور في الصحراء والفزان صوراً لعدد من الحيوانات كالثور والفيل والفهد والاسد والنمر ، ونحن نعرف بأن مثل هذه الحيوانات لا يمكن تعيش الا في وجود المراعي والمياه . ولقد بقي من آثار الصحراء التي كانت غنية بالمياه بعض الينابيع والغدران . كما نجد هناك بعض الادوات الحجرية والقطع الفخارية الكثيرة التي تثبت وجود المزارعين في وادي الصحراء سابقاً والذي هو اليوم يلقع لا حياة فيه .

ولقد كان أولئك المزارعون من السود أجداد سكان افريقيا الوسطى : لأن الجمجمة التي اكتشفت في آسيلار *Asselâr* وفي احدى المناطق الصحراوية في جنوب شرقي تومبوكتو *Tombouctou* تثبت صفاتها السوداء الواضحة . ولقد وجدت هذه الجمجمة مع مجموعة من بقايا الأسماك والتاسيح وبعض الحيوانات غير الفقرية . واذا ما أوغلنا في التاريخ بعيداً نلاحظ بأن انتشار السلالة السوداء قد طرأ عليها بعض التغيير ، كما ان الصحراء لم تعين حدود مساكن القبائل السوداء الشمالية .

وهكذا اخذت الحياة والماء معها يغوران شيئاً فشيئاً ، الا ان المعاصرين للقرطاجيين قد عرفوا الصحراء آنذاك بأنها كانت مسكونة بحيوان الفيل ،

والخيل والجواميس . اما الجمل الذي تبدو لنا صورته ملازمة للصحراء الافريقية ، فانه لم يدخل اليها . الا في القرون الأولى للتاريخ الميلادي . ولذلك وجب علينا ان نغير ما نحمله من افكار حول القارة الافريقية في العصر الذي نحن بصددده وأن نتصور وجود شروط معاشية تختلف كثيراً عن التي نراها اليوم والتي نعتقد بأنها أبدية لا تتغير .

ان شواطئ البحر الأحمر التي تحيط بأفريقيا الشرقية متماسكة وكذلك شبه جزيرة العرب فهي تتمم الصحراء . وفي الجنوب نرى هبوب رياح المحيط المنتظمة قد سمحت بإقامة اتصالات بصورة سريعة بين افريقيا الشرقية والجزيرة العربية والهند وحتى اندونيسيا . وفي عام ٧٢٤ أرسل ملك (شي - لي - فو - شي *che - li - fo - che*) (في سفيريچايا *Svirijaya* في صومترا) سفيراً الى امبراطور الصين ليقدّم له غرامة وهي عبارة عن رجلين من الأقزام وفتاة من (سانكي *Sengk'i*)^(١) مع فرقة من الموسيقيين والبيغاوات من خمسة ألوان مختلفة .

وفي القرن الثامن بعد الميلاد وصل قسم من الرقيق الأسود الى سوماترا . كما كان الملاحون العرب يرتادون الساحل الشرقي قبل هذا التاريخ بزمان طويل .

وان حوادث من هذا النوع في ميادين متعددة تشير على الاقل الى وجود علاقات تاريخية بين مدنات البحر المتوسط والآسيوية من جهة وبين افريقيا من جهة ثانية . اما تأثير مصر على القارة السوداء فقد بقي موضوع جدل . فالبعض يُنكر على السود الافريقيين أن يكون لديهم أية قوة ابداعية او اكتشافية ، في حقول الفن والصناعات او التنظيمات الدينية والاجتماعية والتي تعود كلها الى مصدر واحد ألا وهو مصر القديمة . والبعض الآخر يشير الى مجموعة من الصناعات

(١) ان كلمة سانكي أو (سانغ - تشي ، أو جانجي *Jengi* هي كلمة فارسية أصلها زانغ *Zang* أو زنجي *Zangi* ، كان يستعملها التجار والملاحون الغربيون ثم العرب ليدلوا بها على السود الذين يسكنون ساحل افريقيا الشرقي . وفي العربية يقصد بها الزنج أو الزنوج .

المحددة او بعض المعتقدات، ويرفض هؤلاء أية محاولة لمقارنتها مع غيرها وخاصة مع الماضي .

ومهما كان الامر فكلنا نعلم بأن الحضارة المصرية قد كان لها تأثير في بلاد النوبة والسودان المصري - الانكليزي . ومن على ضفاف النيل امتدت معالم الحضارة الى اماكن بعيدة .

فن المعتقد بأن استخدام النحاس قد دخل منذ زمن طويل الى افريقيا الوسطى عن طريق بحر العرب *Bahr el arab* الذي توجد بقربه مناجم النحاس في (أوفر Hofra) في منطقة (الناحاس Nahas) . وفي العصور التاريخية ومنذ ظهور العائلات المالكة الأولى قامت تجارة الرقيق والعاج والذهب وجلود الفهود والصمغ والحيوانات الغريبة ، بين مصر والسودان النيلي . كما ان ذهاب القوافل وإيائها، التي كانت تتألف من السود النوبيين مع من ينضم اليها من المصريين المغامرين ، تقول بأن هذه القوافل كانت تؤمن الاتصالات المستمرة المنتظمة بين كوردوفان ودارفور وبين المناطق المجاورة لبحيرة تشاد .

كما ان التقدم الحضاري في مصر في القرن الأخير من زمن ما قبل التاريخ قد امتد صعوداً الى المناطق العليا البعيدة . ففي منطقة الفيوم *Fayoum* وجنوبها في منطقة باداري *Badari* وتازه *Tasa* من وادي النيل ، فقد كشفت الحفريات هناك عن وجود آثار تعود الى العصر الحجري الحديث ، والتي لا أثر فيها لوجود المعادن، وهذا ما يدلنا على ظهور المزارعين الأول في هذه المنطقة . ولقد كان هؤلاء يصنعون القفوس من الحجارة المصقولة ويفلحون الأرض ويزرعونها بالقمح والشعير ثم يحصدون الزرع بواسطة مناحل من حجر الصوان ، كما كانوا يحفظون الحبوب في عنابر جوانبها مغطاة بالقش المجدول *Tressée* ، وهذه العنابر عبارة عن سلال كبيرة توضع داخل الأرض ، ولقد وجدت في حالة طبيعية كأن أحداً لم يلمسها بعد .

وكانوا يطحنون الحبوب بواسطة حجرين كبيرين وذلك قبل طبخها في أوعية فخارية . وعدا عن ذلك فقد كانوا يمتنون صيد الحيوانات والاسماك معاً ، كما اقتنوا الغنم والماعز وجعلوها من الحيوانات الأهلية .

وإذا ما اتجهنا الى الجنوب ايضاً ، فإن علماء الآثار الذين يعملون في السودان الانكليزي - المصري منذ عام ١٩٤٥ قد اكتشفوا بحوار مدينة الخرطوم آثاراً تعود لزمان ما قبل التاريخ تذكرنا بعض عناصرها بما اكتشف في العصر الحجري الحديث في مصر وهو ما تحدثنا عنه آنفاً .

ونستطيع القول بأن أقدم حضارة في الخرطوم تعود الى السود الذين كانوا يعيشون على صيد الحيوانات والاسماك ، وكانت تحمل سهامهم رؤوساً من الحجارة المسنونة .

وقد كان هؤلاء السود لا يعرفون الزراعة او تربية المواشي بيد انهم كانوا يتقنون صناعة الأواني الفخارية . ثم جاءت حضارة العصر الحجري الحديث فاستطاع هؤلاء السود أن يربوا نوعاً من الماعز الصغيرة ، ويستعملون الدبابيس الغليظة المدورة والشصوص الصدفية والكلايب العظمية . اما الحلي التي كانوا يحملونها فهي عبارة عن لآلىء يحملونها مع أحجار أخرى وقشور بيض النعام ، وربما تكون قد جاءتهم تلك الحلي من تيبستي *Tibesti* او من الصحراء الشرقية .

كما اكتشفت قطع فخارية في عدة مناطق بعيدة في الصحراء تذكرنا بالعصر الذي سبق حكم العائلات في مصر : ومن هذه المناطق التينيري *Ténéré* في جنوب - شرقي مقاطعة الاحجار *Hoggar* ، ولقد وجد مع هذه القطع الفخارية ليس فقط الكلايب العظمية والشصوص والفؤوس الحجرية كما في العصر الحجري الحديث في الخرطوم ، بل وُجد معها أيضاً رؤوس حراب كثيرة . اما عمر الآثار الصحراوية فهو غير واضح تماماً . أما الاختصاصيون فيرون بأن العصر الحجري الحديث في الصحراء مشتق من العصر المصري الذي سبق العائلات

الحاكمة . ولكن اذا ما قبلنا وجود الجبوب والماعز فوق هضاب الصحراء الوسطى فنستطيع الاعتقاد اذن بأن احفاد اولئك المزارعين ومربي المواشي الذين تفرقوا بتأثير الجفاف واندفعوا بعيداً، كانوا قد وصلوا الى وادي النيل وتمركزوا في مناطق مختلفة تمتد من الخرطوم حتى مصر السفلى .

اما النقطة التي لا تزال موضع نقاش وجدل فهي وجود عناصر حضارية قديمة تعود الى العصر الحجري الحديث في مصر ، في البقعة التي تمتد من النيل الأبيض الى بحيرة تشاد .

وان وجود مثل هذه العناصر يفسر لنا التشابه الكبير بين بعض التنظيمات المصرية القديمة وبين ما نراه اليوم عند النيلين الحاليين .

وفي جميع الأزمنة نرى الافريقيين ، بحكم وجودهم كمزارعين ومربي مواشي ، قد اشتركوا كغيرهم باحتلال الأرض والتمركز عليها . واليهم يعود الفضل باكتشاف البلح الزيتي والبن الى جانب ترويض بعض الحيوانات وتأهيلها كالحمر وخنزير (سنعار أو سنعار Sennaar)^(١) . وبعض أنواع الكلاب ؛ وربما كان السود هم ايضاً من أهلوا الماعز والحمار الذي هو بكل تأكيد من أصل افريقي ؛ وكذلك الدجاجة الفرعوني او البري الذي عُرف من قبل اليونان والرومان ، ثم أهل طيلة العصور الوسطى في الغرب حيث عاد برياً كما كان ؛ ثم ظهر من جديد كحيوان أهلي في القرن السادس عصر على يد البرثغاليين الذين عادوا من افريقيا .

ليس في هذا ما يدهش ابدأً، لأن أية مدنية مهما بدت منعزلة في المظهر فانها لا يمكن ان تبقى دون احتكاك مع العالم الخارجي .

(١) أرض ما بين النهرين (دجلة والفرات) واسم قديم كان يطلق على مملكة السودان القديمة.

وفيما عدا الفتوحات ، فقد توطدت هناك مبادلات ثقافية وفنية وكانت دائماً هناك علاقات بين المجتمعات المتجاورة رغم اختلاف مستوى كل منها. وان الشيء البارز الذي يطبع السكان الافريقيين هو طريقة ذوبان التأثيرات الخارجية الكثيرة وامتزاجها في الاوساط المجتمعية القديمة . وغالباً ما تبقى الافكار الحضارية الأخرى كما هي في المجتمع الجديد دون تغيير ، بينما نراها تتطور او تهمل في أمكنة أخرى .

واخيراً فان ما نراه أهم من التأثيرات التي تأتي من الخارج هو رفض تلك التأثيرات ومنع دخولها . وانا نجد كثيراً من المجتمعات ، في أمكنة متعددة وأزمنة متعددة ، ترفض ان تأخذ شيئاً من غيرها وتبقى هكذا منيعة لا يدخلها شيء غريب .

وخير مثل نضربه على هذا الرفض الذي يصدر عن بعض المجتمعات الافريقية مسألة المحراث ، التي تعرفه كل بلاد البحر المتوسط والذي ظهر في شكله النهائي في مصر ، والذي كانت تجره الثيران منذ زمن العائلة المالكة الثالثة . ورغم أننا نصادف بعض المحارث البدائية في بلاد الآبيسيني وفي منطقة نهر الزامبيز ، بحيث يحدثنا ليفنجستن *Livingstone* ، بأنه رأى تلك الآلة تستعمل في الزراعة هناك وتجرها امرأتان ؛ ولكن هذا لا يمنع ان نرى الافريقيين في كل مكان لا يستخدمون إلا المجرفة المعقوفة ، بحيث يُظهر لنا استعمالها طريقة زراعية خاصة بحيث تكون الأرض فيها غير محفورة على عمق كبير كما هي الحالة في المحراث . كما ان عدم وجود الآلات الزراعية الكاملة لم يمنع بعض السكان السود في السودان وغينيا ، من استخدام السهّاد في الارض وتطبيق نظام الزراعة الدوري .

وهناك مثل آخر على رفض بعض المجتمعات السوداء لكل ما هو جديد او خارجي : كالذهب الذي لم يُستخدم ابداً كنقد للتبادل .

وأن سكان غينيا الذين رأوا قطع الذهب بكل تأكيد بين أيدي البحارة الأوروبيين اثناء بحثهم عن الذهب هناك ؛ لم يخطر ببالهم أن مثل هذا المعدن يمكن استخدامه في مثل هذه الأغراض الدنيئة بين مجموع الافراد .

فلقد بقي الذهب في نظرهم مختصاً بالنبلاء فقط ، كما تجتمع كله تقريباً بين يدي الحاكم العام . وهكذا بقي الذهب أداة للتمييز بين الطبقات في المجتمع الواحد وينظرون اليه في نفس الوقت نظرة دينية .

أما في افريقيا الغربية وفي روديسيا فقد انقلب الذهب الى نوع من الحلبي الى جانب استعماله للزينة والطلاسم . إلا ان مصر هي البلد الوحيد الذي اظهر بوضوح دور الذهب الاقتصادي . وهذا عمل بارز اذا ما فكرنا بالميل التجاري الشديد الذي يظهر عند سكان شاطئ الذهب وداهومي وهم بعد صغار في هذه المهنة .

واذا ما فكرنا أيضاً بأن (الأصداف)^(١) الصغيرة التي تستخرج من المحيط الهندي قد استعملت منذ زمن طويل كعلامة ترمز للتبادل التجاري في كل افريقيا الغربية ، وحيث نفس هذه الأصداف قد اجتازت المحيط الأطلسي مع مجموعات كبيرة من الرقيق .

ونذكر هنا أن الرفض في استعمال الذهب كنقد للتبادل كان في قسم منه عملاً مناهضاً لارادة الاجانب : إلا ان أهل البلاد قد ادركوا بسرعة الفائدة التي يجنيها العرب وبقية البيض من مناجم الذهب ، كما أدركوا النتائج التي ستولد بعد ذلك اذا لم يمنعوا احتلال تلك المناجم .

واذا ما عدنا الى الماضي البعيد نرى ان الاتصالات التي جرت بين افريقيا

(١) هذه الأصداف كانت تستعمل كنقد للتبادل قديماً في الهند والسنغال .

والعالم الخارجي تمثل يوماً مشؤوماً بالنسبة لسكان البلاد . وان أول قصة تاريخية هي جولة حنون البحرية التي تسجل فيما تسجل قتلَ قردين من الغوريلا ، بقي جلداهما معلقين زمناً طويلاً في معبد (بعل Baal) في قرطاجة – وانها لصورة محزنة للعلاقات التي قام بها العالم المتعدن مع سكان أثيوبيا .

وحتى القرن التاسع عشر فان تلك العلاقات لم تتحسن . فبعد سقوط قرطاجة وانهيار دولة مصر القديمة ، فان الحدث الهام في تاريخ افريقيا هو الغزو الاسلامي لها ، الذي أدى الى سقوط عدة عائلات حاكمة من سكانها ، وذلك بعد فترة من الفوضى والمذابح .

والحقيقة ان الاسلام ، رغم ما سبب من خراب ، فقد حمل الى افريقيا وأحيا فيها تياراً من الصناعات والفنون والعلوم ، وليس هذا التيار سوى الارث القديم لحضارة آسيا الصغرى . كما ان سير القوافل قد اكتشف منافذ كثيرة . اذ اصبحت (الجاو Gao) وتومبوكتو على النيجر من المراكز الثقافية والتجارية ، بفضل الاسلام . وكذلك الحج الى مكة الذي كان يقوم به النساك والأتقياء السودانيون مع ملوكهم ، قد لعب دوراً هاماً في تبادل الافكار والصناعات . كما نذكر ايضاً بأن ملك قبائل الماندينج قد أدهش سكان القاهرة في القرن السابع عشر ببطانته وحاشيته .

ولقد تغير كل شيء في القرن التاسع عشر . وكذلك فان مذبحه يهود واحة توات Touat والغزو المراكشي قد دمر السودان . كما ان مملكة مونوموتابا قد انهارت امام موجات الغزو المتلاحقة ؛ واخيراً البرتغاليون الذين حاولوا الوصول الى مناجم الذهب واستغلها ، بيد انهم لم يتمكنوا من ذلك .

وبعد الاسلام والحرب المقدسة يجيء تجار الرقيق العرب ثم من بعدهم الأوروبيون ليزيدوا في انهيار القارة السوداء .

فتجارة الرقيق كانت تضاعف الحروب وتؤدي الى ضعف المجتمعات التي كانت تنهار بالتتابع .

ولم يبق من تلك النظم السياسية التي أبيدت سوى شواهد ملكية استطاعت ان تقاوم : كمملكة قبائل الموسي *Mossi* التي تحكمها عائلة واحدة منذ القرن الحادي عشر والتي أنجبت اربعين حاكماً . وكذلك مملكة داهومي التي تأسست ايام لويس الثالث عشر . وهنالك ايضاً مملكة الزولو وبطلها (شاكا *Chaka*) الذي يوازي اعظم الفاتحين ؛ وبعد خمسين سنة من وفاته استطاع جنوده ان يهاجموا القوات الانكليزية . واخيراً فان فقدان الأمن العام أوصل سكان القارة الى مستوى حياتي بائس ، وهذا ما رآه الاوروبيون وتأكدوا منه عندما وصلوا اليها في القرن التاسع عشر ، كما وصفوه لنا بعبارات قاسية جداً في بعض الأحيان .

لقد تدمرت المجتمعات الافريقية بسبب تجارة الرقيق . بيد ان هذه التجارة ادخلت الى القارة مصدرين اساسيين من ثروتها الحالية : وهما زيت الاراشيد والكاكاو ، اللذان يشكلان اليوم اكثر المنتوجات التي تصدرها افريقيا الغربية ، وحيث نرى زراعة هذين الصنفين قد غيرت مظهر تلك الاراضي الواسعة ، كما جرت الى تغيير جذري في نظام الملكية .

فلقد حمل البرتغاليون الكاكاو الى جزيرة سان تومي *San tomé* ومن ثم الى جزيرة فيرناندو بو *Fernando Po* ومنها دخل شجر الكاكاو شاطئ الذهب . كما ان النخاسين قد حملوا معهم من امريكا شجر الاراشيد ليقدموه غذاء للرقيق اثناء نقلهم ، وأخيراً فقد توصل السود الى معرفة المانيوك *Manioc* والايغنام *igname* بواسطة البرتغاليين ايضاً .

وان مثل هذه النباتات التي تنضج متأخرة ، في فصل الجفاف ، قد انقذت

حياة الآلاف من البشر ايام سنوات المجاعة .

وليس هنا مجال للبحث في ما لأوروبا من دَين على افريقيا ، لان مساعدتها في ادخال مثل هذه الزراعات لم يكن يتجاوب مع هدف انساني صرف . وعلى كل حال فقد اظهر الافريقيون جدارتهم في وقت قصير لاستخدام تلك النباتات مستعملين الطرق الزراعية الجديدة والاعمال الحقلية الجديدة بالاضافة الى تلاؤمهم مع التغذية من هذه النباتات وطرق تحضيرها ؛ وأخيراً فقد أظهروا قبولهم للتبدلات التي غيرت كل حياتهم الاقتصادية والاجتماعية .

كما حلت تجارة المضائق محل تجارة الرقيق واستطاعت ان تتطور هذه التجارة منذ خمسين سنة تقريباً ، فغيرت بذلك نمط اقتصادهم التقليدي ، حيث اصبح طلب المنتوجات الزراعية الخاضعة للتصدير يتوقف على تأرجح السوق العالمية . كما ان مشاريع الاوربيين الاستثمارية قد استهلكت كثيراً من اليد العاملة ، فكان هذا الاستهلاك سبباً في تنمية عدم توازن الاقتصاد وتجمع السكان في القارة .

واخيراً فالمراقبة السياسية والقضائية من قبل الدولة ، وكذلك المراقبة الدينية في الاماكن التي استطاعت المسيحية ان تنتشر فيها ، كل هذا كان عاملاً على هدم ما لتلك الجماعات من سلطة تقليدية فيما بينهم . وهكذا وأمام اعيننا ينمحي عالم بأسره وفي نفس الوقت تتم تغييرات اجتماعية شاملة .

واذا ما قلنا اخيراً بأن الافريقي ليس عدواً لكل جديد يطراً عليه فلأننا نملك اليوم أعظم برهان على ذلك . فان مقدرة الافريقي على التلاؤم هي دليل على الحيوية التي لم تستطع التجارب ان تطمسها . وستسمح له تلك الحيوية الكامنة فيه ، اذا ما بقي سيد نفسه في أرضه ، ان يحتل في العالم المكان الذي حُرِمَ منه زمناً طويلاً .



المراجع

- بومان (ه) ويسترمان (د) : شعوب وحضارات أفريقيا . طبعة فرنسية ١٩٤٨ .
- دولافوس (م) : سود أفريقيا باريز ١٩٢٢ ، حضارات السود - الافريقيين باريز ١٩٢٥ .
- ديشامب (ه) : يقظة أفريقيا السياسية . باريز ١٩٥٢ .
- اسكير (ج) : تاريخ الجزائر . باريز ١٩٥٠ .
- ايفان بريتشار (و . و) وفوريتس (م) : نظم افريقيا السياسية . او كسفورد ١٩٤٠ .
- جوتيه (و . ف) : افريقيا السوداء الغربية . باريز ١٩٣٥ .
- جوليان (ش . ا) : تاريخ أفريقيا . باريز ١٩٤١ .
- كلين (ج) : تونس . باريز ١٩٤٩ .
- لا بوريه (ه) : فلاحو أفريقيا الغربية . باريز ١٩٤١ ، تاريخ سود افريقيا . باريز ١٩٤٦ .
- لوروا جوران (ا) وبواريه (ج) : سلات الاتحاد الفرنسي . ا ، افريقيا ، باريز ١٩٥٣ .
- نيج (ج . ل) : مراکش . باريز ١٩٥٠ .
- راد كليف - براون (ا . ر) وفورد (داريل) :
- ريشار - مولارد (ج) : أفريقيا الغربية الفرنسية . باريز ١٩٤٩ .
- سيلجمان (س . ج) : السلات الافريقية . ترجمة فرنسية . باريز ١٩٣٥ .
- فالوا (ه . ف) : السلات البشرية . باريز ١٩٤٩ .
- ويلرس (ج) : افريقيا السوداء . باريز ١٩٣٤ .

طبع هذا الكتاب على مطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت - ص. ب ١٣٩٠

لهذا الكتاب

من الأحكام القويّة التي راجت ، هو أنّ
الأفريقيين لم يكن لديهم أي نصيب في التراث
الحضاري بشكل عام . وهكذا تكون أفريقيا
إذن دون تاريخ .

وكما أنّ لا أحد ينكر وجود حضارات قديمة
في آسيا ترجع إلى آلاف السنين ، كذلك نرى أنّ
المغاربة الأسبان بعد أن قضوا على هود أمريكا
وقفوا مذهولين أمام روعة المعابد والقصور التي
خلفها أولئك المتوحشون . ولكن ما نراه هو أنّ ماضي
القارة الأفريقيّة السوداء ، لم يلق اهتماماً إلا منذ سنوات
خلت ، وحتى أنّ دراسة الآثار الأفريقيّة لم يكن
لها وجود .

وهذا الكتاب إنّما هو مخصص للبحث في
الحضارات الأفريقيّة الصرفة من الناحية
التاريخيّة والسكان والأنواع وطرق الحياة .

من الكتاب

Bibliotheca Alexandrina



0214490

دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت

الثنى : ٤٥٠ ق . ل . او ما يعادلها